نجيب محفوظ
رحلة ابن فطومة
Bibliotheca Alexandrina
0146997

رحلة ابن فطومة

مطبوعات مكتبة مصر

رحلة ابن فطومة

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

مكتبة مصر

٣ [illegible] الفجالة

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

الـوطن

الحياة والموت ، الحلم واليقظة ، محطات للروح الحائر ، يقطعها مرحلة بعد مرحلة ، متلقيا من الأشياء إشارات وغمزات ، متخبطا فى بحر الظلمات ، متشبثا فى عناد بأمل يتجدد باسما فى غموض . عم تبحث أيها الرحالة ؟، أى العواطف يجيش بهـا صدرك ؟، كيف تسوس غرائزك وشطحاتك ؟، لم تقهقه ضاحكا كالفرسان ؟، ولم تذرف الدمع كالأطفال ؟ وتشهـد مسرات الأعياد الراقصة ، وترى سيف الجلاد وهو يضرب الأعناق ، وكل فعل جميل أو قبيح يستهل باسم الله الرحمن الرحيم . وتستأثر بوجدانك ظلال بارعة براعة الساحر مثل الأم والمعلم والحبيبة والحاجب ، ظلال لا تصمد لرياح الزمن ولكن أسماءها تبقى مكللة بالخلود . ومهما نبا بى المكان فسوف يظل يقطر ألفة ، ويسدى ذكريات لا تنسى ، ويحفر أثره فى شغاف القلب باسم الوطن . سأعشق ما حييت نفثات العطارين ، والمآذن والقباب ، والوجه الصبيح يضىء الزقاق ، وبغال الحكم وأقدام الحفـاة ، وأناشيد الممسوسين وأنغام الرباب ، والجياد الراقصة وأشجـار

اللبلاب ونوح اليمام وهديل الحمام . وتحدثني أمي فتقول :

ـــ يوم مولدك .

وتهز رأسها جميل التكوين فأقول بحبور :

ـــ بل يومك هو الأصل !

كان أبي محمد العنابي تاجر غلال مترعا بالثراء . أنجب سبعة تجار مرموقين ، وعمر حتى جاوز الثمانين متمتعا بالصحة والعافية . وفي الثمانين رأى أمي الجميلة فطومة الأزهري وهي بنت سبعة عشر ، آخر عنقود جزار يدعى الأزهري قطائف فغزت قلبه وتزوج منها وأقام معها في دار رحيبة اشتراهاباسمهامحدثا في أسرته غضبا وشغبا . اعتبر إخوتي الزواج لعبة قذرة غير مشروعة ، واستعانوا على أبيهم بشفاعة القاضي وكبير التجار ولكنه مرق من قبضتهم مروق عاشق مسلوب الإرادة ، فاعتد الزواج حقا لا يقبل المناقشة ، وفارق السن وهما يتعلل بـه المغرضون ، وراح ينهل من معين سعادته بقلب ملىء بالثقة .

ـــ وجاء مولدك مؤكدا للهزيمة مجددا للغضب !

وأقول لها كثيرا :

ـــ لا حد لطمع الإنسان !

فمنذ حداثتي وأنا أتلقى أجمل الكلمات رغم ارتطامي بأقبح الفعال . وسماني أبي « قنديل » ولكن إخوتي أطلقوا علي « ابن فطومة » تبراء من قرابتي وتشكيكا فيها . ومات أبي قبل أن يطبع صورته في وعيي

تاركا لنا ثروة نضمن حياة رغدة حتى آخر العمر . وقطعت الخصومة ما بيننا وبين إخوتى . وخافتهم أمى على نفسها وعلى فأطاحت بها الوساوس والظنون حتى قررت ألا ترسلنى إلى الكتاب . فعهدت بى إلى الشيخ مغاغة الجبيلى — وكان جارا لأسرتها — ليلقنتى العلم فى دارى . وعنه تلقيت دروسا فى القرآن والحديث واللغة والحساب والأدب والفقه والتصوف والرحلات . كان فى الأربعين ، قويا مهيبا ، ذا لحية رشيقة وعمامة عالية ، وجبة أنيقة ، وعينين لامعتين ثاقبتى النظرة ، يمد صوته الملىء عند إلقاء الدرس ، ويرسله على مهل وهدوء ، ويذلل الصعب بجودة الشرح ورقة الابتسامة . وكانت أمى تتابع الدروس باهتمام مستفيدة من فراغها الطويل ، تنصت من وراء ستار ونحن فى القاعة شتاء ، ومن وراء خصاص ونحن فى السلاملك فى بقية الفصول ، وكانت تقول لى :

— أراك سعيدا بمعلمك ، وهذا حظ حسن ..

فأقول لها بحماس :

— إنه شيخ عظيم ..

وكان يخصص وقتا للمناقشة ، فيطرح ما يرى من أسئلة ولكنه يدعونى لإعلان خواطرى ويعاملنى معاملة الراشدين .

ويوما — لا أذكر فى أى فترة من العمر — سألته :

— إذا كان الإسلام كما تقول فلماذا تزدحم الطرقات بالفقــراء

والجهلاء ؟!

فأجابني بأسى :

ــ الإسلام اليوم قابع فى الجوامع لا يتعداها إلى الخارج !

ويفيض فى الحديث فيلهب الأوضاع بنيرانه .. حتى الوالى لا يسلم من شرره . وقلت له :

ــ إذن إبليس هو الذى يهيمن علينا لا الوحى .

فقال برضا :

ــ أهنئك على قولك ، إنه أكبر من سنك ..

ــ والعمل يا سيدنا الشيخ ؟

فقال بهدوء :

ــ أنت ذكى ، وكل آت قريب ..

أما حديثه عن الرحلات فمثار للعشق والسرور . وتكشف فى مجرى حديثه عن رحالة قديم . قال :

ــ عرفت الرحلات فى صحبة المرحوم أبى فطوفنا بالمشرق والمغرب ..

فأقول بلهفة :

ــ حدثنى عن مشاهداتك يا سيدنا .

فحدثنى بسخاء حتى عايشت بخيالى ديار المسلمين المترامية ، وتبدى لى وطنى نجما فى سماء مكتظة بالنجوم . وقال :

ـــ ولكن الجديد حقا لن تعثر عليه فى ديار الإسلام !

وتتساءل عيناى عن السبب فيقول :

ـــ جميعها متقاربة فى الأحوال والمشارب والطقوس ، بعيدة كلها عن روح الإسلام الحقيقى ، ولكنك تكتشف ديارا جديدة وغريبة فى الصحراء الجنوبية ..

أثار أشواقى لدرجة الاشتعال ثم قال :

ـــ قمت بتلك الرحلة وحدى عقب وفاة أبى ، فزرت ديار المشرق والحيرة والحلبة ، ولولا الظروف المعاندة لزرت الأمان والغروب والجبل ، ولكن القافلة وقفت عند الحلبة بسبب قيام حرب أهلية فى دار الأمان ..

ويحدجنى بنظرة غريبة ثم يقول :

ـــ وهى ديار وثنية !

فهتفت :

ـــ أعوذ بالله !

ـــ ولكن الغريب لا يلقى فيها أو فى الطريق إليها إلا الأمن لحاجتها الملحة إلى التجارة والسياحة ..

فهتفت مرة أخرى :

ـــ ولكنها ملعونة ..

فقال بهدوء :

ـــ لا حرج على المشاهد .

ـــ ولِمَ لَم تعاود الكرة ؟

ـــ ظروف الحياة والأسرة أنستنى أهم هدف من الرحلة وهو زيارة دار الجبل .

فسألته بشغف :

ـــ وما خطورة دار الجبل ؟

فقال متنهدا :

ـــ تسمع عنها الكثير ، كأنها معجزة البلاد ، كأنها الكمال الذى ليس بعده كمال ..

ـــ لا شك أن كثيرين من الرحالة قد كتب عنها ..

فقال بنبرة لم تخل من أسى :

ـــ لم أصادف فى حياتى آدميا ممن زاروها ، ولا وجدت كتابا عنها أو مخطوطا ..

فقلت بضيق :

ـــ إنه أمر عجيب لا يصدق ..

فقال بكآبة :

ـــ إنها سر مغلق ..

وكأى سر مغلق شدنى إلى حافته ، وغاص بى فى ظلماته ، وضرم النار فى خيالى ، وكلما ساءنى قول أو فعل رفت روحى حول دار

الجبل . وراح الشيخ مغاغة الجبيلى ينور عقلى وروحى ويبدد الظلام من حولى ، ويوجه أشواقى إلى أنبل ما فى الحياة . وسعدت أمى بما أكتسبه يوما بعد يوم ، وشاركت فى تكوينى بحبها وجمالها . متوسطة الطول ، كانت ، رشيقة العود ، تنضح بشرتها بالبياض والصفاء والملاحة . ولم تتردد مرة عن إعلان إعجابها بجمالى ولكنها قالت لى بنفس الصراحة :

ــ كلامك كثيرا ما يكدر صفوى ..

وتساءلت عن السبب فقالت :

ــ كأنك لا ترى إلا الجانب القبيح من الحياة !

ولم تكن تنكر أقوالى أو ترى فيها أى مبالغة ، ولكنها أفصحت عن إيمانها قائلة :

ــ الله صانع كل شىء ، وله فى كل شىء حكمة ..

فقلت مندفعا :

ــ ساءنى الظلم والفقر والجهل !

فقالت بإصرار :

ــ الله يطالبنا بالرضا فى جميع الأحوال .

وطرحت الموضوع للمناقشة مع الشيخ ولكن موقفه كان واضحا تماما فهو يؤمن بالعقل وحرية الاختيار ولكنه همس فى أذنى برقة :

ــ تجنب إزعاج والدتك ..

وهى نصيحة انسقت إلى اتباعها مدفوعا ومدعما بحبى الكبير لها ،

و لم أجد فى ذلك مشقة فقد كانت سذاجتها تعادل جمالها نفسه . غير أن الأيام التى وهبتنى الدرس والتربية دفعت بى أيضا إلى مشارف الشباب فهطلت السماء بأمطار جديدة ، وتجلت مشاهدها على ضوء مشاعل جديدة . ويسألنى الشيخ مغاغة الجبيلى :

— ماذا نويت أن تعمل فى هذه الحياة التى لا تكتمل إلا بالعمل ؟

ولكننى كنت أرى حليمة عدلى الطنطاوى بعين جديدة . طالما رأيتها على عهد الصبا وهى تقود أباها الضرير قارئ القرآن . لهم بيت صغير قديم فى حارتنا التى تقوم فيها دارنا متألقة كالكوكب . وكان اهتمامى يتجاوزها إلى أبيها بقامته النحيلة وعينيه المطموستين وأنفه الغليظ المجدور . أثار عطفى ودهشتى ، وأعجبنى صوته وهو يؤذن للصلاة متطوعا أمام باب داره . وحولتنى الأيام اللاهثة إلى البنت فاكتشفتها من جديد . كانت أرض الحارة زلقة غب مطر خفيف ، وكان الشيخ يسير بحذر مسلما يسراه لابنته ويمناه على عصاه الغليظة تتحسس له مواضع قدميه بضربات متتابعة كمنقار دجاجة تنقب عن حب . وسايرته حليمة غائصة فى جلباب فضفاض غامق اللون لا يظهر من خمارها المسدل إلا عينان ، ولكن هيئتها تمثلت لعينى المشربتين بماء الفتوة أنثى كاملة ، تتجسد جواهرها المستورة كلما خفق النسيم بجلبابها كأنها جمرات تحت رماد . وزلت قدمها أو كادت فشدت عضلاتها بسرعة لتحفظ توازنها فتحرك رأسها حركة نافرة أطاحت بطرف الخمار عن

وجهها فانطبع بتمامه على بصرى غارسا حسنه فى أركان وجدانى . تلقيت فى لحظة عابرة رسالة طويلة مشحونة بكافة الرموز التى تقرر مصير قلب . وسألتنى أمى بناء على ما سمعته من حديث الشيخ مغاغة عن العمل الذى تكتمل به الحياة :

ـــ ألا توافقنى أنه لا يصلح لك إلا التجارة ؟

فأدهشتها إذ قلت :

ـــ إنى أفكر فى الزواج أولا !

ورحبت بحرارة مؤجلة الحديث عن « العمل »، وراحت تصف لى بعض بنات التجار ولكنى أدهشتها مرة أخرى وأنا أقول :

ـــ وقع اختيارى على حليمة بنت الشيخ عدلى الطنطاوى ..

تلقت أمى صدمة لم تدارها وقالت :

ـــ إنها دون المطلوب فى كل شىء !

فقلت بإصرار :

ـــ ولكنى أريدها ..

فقالت باستياء متجهمة الوجه :

ـــ ستشمت بنا إخوتك !

ولكن إخوتى كانوا كشىء لم يكن . وشعورى بأنى رجل الدار كان يتعاظم مع الوقت . وهى لم تعاندنى وإن ضنت علىّ بالموافقة ، وفى الوقت نفسه لم تفقد الأمل . وإذا بالأمور تجرى مع رغباتى وإن يكن

بثمن باهظ . مضت معارضة أمى تخف حتى قالت لى مسلمة :

ـــ سعادتك أغلى عندى من أى شىء أو اعتبار ..

وفى الحال قامت بما ينتظر منها فذهبت من السراى إلى البيت المتهرئ وخطبت لى حليمة . ومرة تالية صحبتنى معها فجالسنا الشيخ عدلى الطنطاوى وحرمه ، ودخلت العروس فأبدت ما يسمح به الشرع بإبدائه من الوجه واليدين ، ومكثت دقائق معدودة ثم ذهبت . ومضى الاستعداد للزواج بسرعة محمودة . ولاحظت يوما أن أستاذى الشيخ مغاغة الجبيلى يعانى ارتباكا غير معهود ، وأنه يحدثنى بنبرة جديدة تماما . قال بهدوء وهو ينظر إلى مركوبه :

ـــ ثمة أمر هام يا قنديل .

فأثار اهتمامى لأقصى درجة فقلت :

ـــ رهن إشارتك يا مولاى ..

فقال بأسى :

ـــ لم أعد أطيق وحدتى ..

كان الشيخ أرمل ، وقد أنجب ثلاث بنات تزوجن وقررن فى بيوتهن . سألته ببراءة :

ـــ ولم تبقى وحيدا ؟.. ألم يتزوج النبى عليه الصلاة والسلام عقب وفاة السيدة خديجة ؟!

ـــ صدقت ، وهذا ما أفكر فيه ..

فقلت بحماس :

ـــ وإنك لرجل ترحب به كرام الأسر .

فقال بحياء :

ـــ ولكن مطلبى فى أسرتك بالذات !

فدهشت وأحدق بى انزعاج شامل . تساءلت :

ـــ أسرتى ؟!

فأجاب بخشوع :

ـــ أجل ، الست والدتك !

فقلت بعجلة :

ـــ ولكن والدتى لا تتزوج !

ـــ لم يا قنديل ؟

فحرت قليلا ثم قلت :

ـــ إنها أمى !

فقال بهدوء :

ـــ الزواج شريعة الله سبحانه ، ولن يهون عليك أن تتزوج وتترك أمك وحيدة !

وصمت قليلا ثم قال :

ـــ الله يهدينا إلى سواء السبيل ..

فى وحدتى تلاطمت أفكارى ، وترتبت الأحداث فى خيالى فى

صورة جديدة كئيبة . قلت لنفسى إن إذعان أمى المفاجئ لرغبتى فى الزواج من حليمة ليس إلا نتيجة لرغبتها فى الزواج من الشيخ مغاغة الجبيلى . حصلت أمور بريئة من وراء ظهرى ولكنها اعترضت حلقى ، وجدت نفسى فى موقف دقيق حرج ما بين أعز شخصين فى حياتى وبين غضبى وسخطى وحيائى . وهتفت من أعماقى :

— اللهم جنبنى الظلم والحمق ..

الحق أننى سلكت سلوكا هو أحق بشخص أكبر منى سنا وتجربة . تركت الأمور تجرى كما يشاء الله ، وأقنعت نفسى المتمردة بأن الزواج حق للرجل والمرأة ، وأن أمى ليست أما خالصة ولكنها امرأة أيضا ، وأننا خلقنا لنكابد الحقيقة ونصمد لها ، ونتلقى نصيبنا من السرور والألم بشجاعة المؤمنين . وحملت التجربة بكافة أبعادها على عاتقى وفاتحت أمى بالموضوع بصراحتى المألوفة . وأبدت دهشة أحنقتنى وتمتمت :

— ما خطر لى ذلك ببال ..

فقلت ببرود :

— ولكنه حق وعدل .

ومضيت أهضم خيبتى على حين قالت هى فى تلعثم :

— أريد فرصة للتفكير ..

اعتبرت ذلك أول إشارة للموافقة لتناقضه الشديد مع أسلوب

الرفض الواضح ، وانتظرت بقلب كئيب ، حتى همست لى فى حياء وارتباك :

ـــ لتكن مشيئة الله !

وتأملت كيف نزخرف أهواءنا بكلمات التقوى المضيئة ، وكيف نداری حياءنا بقبسات الوحى الإلهى . وجرى الاستعداد المألوف لزواج الابن والأم ، وتم الاتفاق على انتقال أمى إلى دار الشيخ مغاغة وهى دار حسنة ، وانتقال حليمة إلى السراى . وصممت على أن ألوذ بالسعادة المتاحة نافضا عن ذيلى رواسب الأكدار . ولكن هبط علينا قدر فنسف خطتنا . زحم حياتنا الهادئة الحاجب الثالث للوالى فاقتحمنا كعاصفة . رأى ذات يوم حليمة فقرر أن يجعل منها زوجته الرابعة . وذعر الشيخ عدلى الطنطاوى وقال لأستاذى الشيخ مغاغة :

ـــ لا قبل لى بالرفض !

وفسخ الخطوبة وهو يرتعد ، فزفت حليمة إلى الحاجب الثالث ما بين يوم وليلة . انطويت على نفسى ذاهلا وأنا أتساءل عن قلب حليمة ، عن مشاعرها الدفينة ، هل شاركتنى ألمى أو أن لألاء الملك أسكرها وبهر عينيها . ووجدتنى فى وحدتى أقول لنفسى :

ـــ خاننى الدين ، خانتنى أمى ، خانتنى حليمة ، ألا لعنة الله على هذه الدار الزائفة ..

بدا كل شىء كالحا ، وبدءا من أبسط الأفراد. مثل الشيخ عدلى

الطنطاوى حتى الوالى نفسه ، مرورا بأناس ومعاملات تستحق الطوفان ليحل محلها عالم جديد نظيف . لم أتأثر بعطف أمى وحزنها ، ولا حكم الشيخ مغاغة التى ذرها على ، بدت لى الدنيا صفراء كريهة لا تحتمل ولا تعاشر . وقالت لى أمى :

— يجب أن تتزوج فى أقرب وقت ولعل الله يدخر لك أفضل مما اخترت !

فهززت رأسى رافضا ، فقال الشيخ مغاغة :

— اشرع فى العمل بلا تأخير .

فهززت رأسى أيضا .. فقال الرجل :

— لديك ولا شك خطة ..؟

فقلت معربا عن عواطفى الجائحة :

— أن أقوم برحلة !

فتساءلت أمى فى انزعاج :

— أى رحلة ؟.. إنك لم تكد تبلغ العشرين من عمرك !

فقلت :

— هى أنسب سن للرحلة ..

ونظرت إلى أستاذى مليا وقلت :

— سأزور المشرق والحيرة والحلبة ولكنى لن أتوقف كما توقفت بسبب الحرب الأهلية التى قامت فى الأمان ، سأزور الأمان والغروب

ودار الجبل ، أى وقت يلزمنى لذلك ؟

فقال الشيخ مغاغة الجبيلى وهويلحظ أمى بإشفاق :

ــ يلزمك عام على الأقل إن لم يزد .

فقلت بتصميم :

ــ ليس هذا بالكثير على طالب الحكمة ، أريد أن أعرف ، وأن أرجع إلى وطنى المريض بالدواء الشافى ..

وهمت أمى بالكلام ولكننى سبقتها قائلا بحزم :

ــ إنه قرار لا رجعة فيه ..

واستحوذ على الحلم ، وتلاشى الواقع ، وتراءت دار الجبل لعين خيالى كنجم معشوق يعتلى عرشه وراء النجوم ، فنضجت الرغبة الأبدية فى الرحلة على لهيب الألم الدائم . وأذعن الشيخ مغاغة الجبيلى للواقع فدعا صاحب القافلة للعشاء معنا . كان فى الأربعين ، يدعى القانى بن حمديس ، قوى البنيان والرأى . قال الشيخ مغاغة :

ــ أود أن يذهب معك ويرجع معك .

فقال الرجل :

ــ هذا يتوقف على رغبته ، نحن نقيم فى كل دار عشرة أيام ، فيمضى معنا من يقنع بها ويتخلف من يروم المزيد ، وعلى أى حال توجد قافلة كل عشرة أيام ..

فقال لى الشيخ مغاغة :

— عشرة أيام فيها الكفاية ..

فقلت :

— أعتقد ذلك ..

أما أمى فركزت على مسألة الأمن فقال لها الرجل بوضوح :

— لم تتعرض قافلة لهجوم أبدا ، إن أهل البلاد لا يحظون بعشر معشار ما يحظى به الغريب من حماية ..

وأخذت فى الاستعداد للرحلة مسترشدا بأستاذى الشيخ مغاغة فملأت حقيبة بالدنانير وثانية بالملابس وثالثة باللوازم ومنها الدفاتر والأقلام والكتب . ورأيت أن يتم زواج أمى بالشيخ قبل رحيلى ، غير أن الشيخ انتقل إلى السراى حتى لا تهجر بلا ساكن . ولبستنى حال جديدة ، فقل تفكيرى فى أحزانى ، وهيمنت الرحلة على حواسى ، وانفسح أمامى مجال غير محدود للأمل ..

دار المشرق

ودعتنى أمى وداعا حارا دامعا وهى تقول :

ــ أغنانا الله عن ذلك كله ولكنها إرادتك !

فقلت لنفسى : « على أى حال لم أتركك وحدك» وصحبنى الشيخ مغاغة الجبيلى إلى ميدان المكوس فبلغناه قبيل الفجر ، ورأينا القافلة على ضوء المشاعل . امتد الظلام حولنا يتنفس نسائم الربيع وفوقنا ترامقت النجوم الساهرة . همس الشيخ مغاغة فى أذنى :

ــ لا تتخلف عن قافلة ابن حمديس .

على حين ارتفع صوت صاحب القافلة وهو يهتف :

ــ السير عقب صلاة الفجر .

ورآنا فصافحنا وقال لى :

ــ جميع الرفاق من التجار وأنت الرحالة الوحيد بيننا !

فلم يسرنى ذلك ولم أتكدر له . وارتفع صوت الأذان محلقا فوق الرءوس فمضينا نحو جامع السوق ، وانتظمنا فى آخر صلاة جامعة تتاح لنا . وانطلقنا من الجامع إلى القافلة فاتخذنا مجالسنا مع الحقائب . وبدأ الطابور يتحرك على إيقاع حاد فغاص قلبى بحنين

الوداع وتحركت فى أعماقه ذكريات أمى وحليمة فى غلاف من ذكريات الأسى الشامل الذى يحتوى وطنى كله . وغمغمت فى أحضان الظلام :

ـــ اللهم بارك خطاى .

وأخذت الظلمة ترق ، وتلوح بشائر النور الموعود فى الأفق ، حتى تخضب بحمرة باسمة وبزغ حاجب الشمس ، ناشرا الضياء فوق صحراء بلا حدود . تجلت القافلة خطا راقصا فى صفحة كونية متحدية بالجلال ، وانغمر جسمى فى حركة رتيبة متتابعة تحت موجات من نور متدفق ، وهواء سابح ، وحرارة تتصاعد منذرة بالعنف ، ومنظر ثابت بين رمال صفراء وسماء زرقاء صافية . لذت من المنظر الواحد بنفسى فغصت فى ذكرياتها الملحة وانفعالاتها المرة ، وأحلامها الوردية . وعند كل عين ماء كنا نتوقف للطعام والوضوء والصلاة والسمر . عرفت نخبة من الرفاق التجار ورمقوا « الرحالة الوحيد » بنظرات غريبة . وقلت مفسرا ومتباهيا :

ـــ سأذهب حتى دار الجبل !

فتساءل أحدهم باستهانة :

ـــ وما دار الجبل ؟

وقال ثان بفخار :

ـــ نحن دار الإسلام..

وقال ثالث :

ــ التجارة من العمران والله يأمرنا بالعمران ..

وقال رابع :

ــ كان النبى عليه الصلاة والسلام تاجرا .

فقلت كالمعتذر :

ــ وكان أيضا رحالة ومهاجرا !

فقال الأول :

ــ ستبدد ثروتك فى الترحال وترجع إلى بيتك فقيرا ...

فقلت كاظما غيظى :

ــ لا يعرف الفقر من يؤمن بالعمل ...

وكنت أحترم التجارة ولكننى آمنت بأن الحياة رحلة كما هى تجارة . وتتابعت الأيام طويلة وثقيلة ، حارة بالنهار باردة بالليل ، رأيت النجوم كما لم أرها من قبل جليلة ساحرة لا نهائية ، وعرفت أن حزنى من أمى أكبر مما تصورت ، وأن حبى لحليمة أقوى من أن يؤثر فيه الليل والنهار والنجوم والتطلع نحو المجهول . وسرنا ما يقارب الشهر حتى لاحت لنا من بعد أسوار دار المشرق . عند ذاك قال القانى بن حمديس :

ــ سنعسكر عند العين الزرقاء ، وندخل الدار عند منتصف الليل .

وأعددنا أنفسنا . ولما صلينا العشاء سمعت من يهمس :

ــ آخر صلاة حتى نرجع من بلاد الوثنية !

فامتعضت كثيرا ولكنى كنت أعد نفسى لحياة جديدة طويلة فقلت لنفسى : « الله غفور رحيم » .

وقبيل منتصف الليل تقدمت القافلة من الدار الجديدة . وقابلنا عند المدخل رجل عارى الجسد إلا من وزرة تستر العورة ، بدا طويلا نحيلا على ضوء المشاعل ، وقال الرفاق إنه مدير الجمرك . قال الرجل بصوت جهورى :

ـــ أهلا بكم فى المشرق عاصمة دار المشرق ، إنها ترحب بالتجار والرحالة ، ومن يلزم حدوده فلن يلقى إلا الطيب والجميل .

ودخلت القافلة بين صفين من الحراس ، فمضى التجار إلى السوق ، ومضى بى دليل إلى فندق الغرباء . أناخ الجمل أمام سرادق كبير كأنه ثكنة ، وحمل الدليل حقائبى إلى الداخل فأدركت أنه فندق الغرباء .. كان سرادقا كبيرا منقسما إلى جناحين يفصل بينهما بهو ممتد ، وكل جناح يحوى غرفا متلاصقة أضلاعها مبنية من الأقمشة الوبرية . وكانت الحجرة التى اختيرت لى بسيطة بل بدائية ، أرضها رملية ، وبها فراش عبارة عن خشبة مطروحة على الأرض ، وسحارة للملابس ، وشلتة فى الوسط . وما إن فرغت من تفقد حقائبى حتى هرعت إلى الفراش بحنين شخص حرم من الرقاد الطبيعى شهرا كاملا ، فنمت نوما عميقا حتى أيقظنى حر النهار . ونهضت كالمتوعك ، ومرقت إلى البهو فوجدته مكتظا بالنزلاء وقد جلسوا أمام حجراتهم يفطرون . وجاءنى

رجل قصير لا يخلو من بدانة مؤتزرا بما يغطى العورة وقال لى باسما :

ـــ أنا فام صاحب الفندق ، هل قضيت ليلة مريحة ؟

فقلت والعرق يسيل فوق جبينى :

ـــ شكرا .

ـــ هل آتيك بالفطور ؟

فقلت بلهفة :

ـــ بل أريد الحمام .

وقادنى إلى نهاية البهو فأزاح ستارة فوجدت ما يلزمنى لأغتسل وأمشط شعر رأسى ولحيتى الصغيرة . وعدت نحو غرفتى فوجدت فام قد جاء بطبلية وراح يعد لى الفطور . سألته :

ـــ هل أستطيع أن أصلى فى غرفتى ؟

فقال محذرا :

ـــ قد يراك أحد فتتعرض لما يسوءك ..

وجاءنى بإناء به تمر ولبن وفطيرة شعير فأكلت بسرور حتى شبعت . وقال لى :

ـــ كنت ذات يوم ممن يعشقون الرحلات .

فسألته :

ـــ آأنت من المشرق ؟

ـــ أصلى من الصحراء ثم استقر بى المقام فى المشرق ..

سرنى أن أجد فيه رحالة قديما فقلت :

ــ دار الجبل هى الهدف الأخير من رحلتى ..

ــ وهى هدف الكثيرين ولكن أسباب الرزق حجزتنى عنها ..

فسألته بلهفة :

ــ ماذا تعرف عنها يا سيد فام ؟

فأجاب باسما :

ــ لا شيء إلا ما توصف به أحيانا كأنما هى معجزة الدهر ، ومع ذلك فلم أصادف رجلا واحدا ممن زاروها ..

وقال لى صوت باطنى بأننى سأكون أول ابن لآدم يتاح له أن يطوف بدار الجبل ثم يعلن سرها للعالمين . وسألنى :

ــ هل تمكث طويلا فى المشرق ؟

ــ عشرة أيام ثم أذهب مع قافلة القانى بن حمديس .. .

ــ عظيم ، سر وانظر وتمتع بوقتك ، وحسبك غطاء للعورة ولا تزد عن ذلك ..

فقلت مستنكرا :

ــ لا أستطيع أن أخرج بلا عباءة .

فقال ضاحكا :

ــ سترى بنفسك ، نسيت أن أسألك عن اسمك الكريم ؟

ــ قنديل محمد العنابى .

فرفع يده إلى رأسه تحية وذهب . غادرت الفندق فى الضحى متلفعا بعباءة خفيفة واسعة المسام ، لابسا عمامتى لتقينى الشمس . وأنا أعجب من حرارة الربيع وأتساءل عن حرارة الصيف كيف تكون . ولدى مغادرتى الفندق هالنى أمران ، العرى والفراغ .

الناس ، النساء منهم والرجال على السواء ، عرايا تماما كما ولدتهم أمهاتهم . والعرى عادة مألوفة لا تلفت نظرا ولا تثير اهتماما ، كل ذاهب لوجهته ، ولا يثير الغرابة إلا الغرباء أمثالى لما يرتدون من ملابس . والأجساد نحاسية اللون ، نحيلة لا من رشاقة ولكن من قلة الغذاء فيما يبدو وإن غلب عليهم الرضى بل والمرح . وجدت مشقة لأزيل عن وجدانى الشعور بالشذوذ لملابسى التى أرفل فيها ، ووجدت مشقة أكبر فى صرف بصرى عن مشاهد العرى المثيرة وما بعثته فى دمائى من نيران متأججة . وقلت لنفسى :

ـــ يا لها من دار تقذف بمن كان فى شبابى إلى فتنة محرقة !

أما الأمر الغريب الثانى فهو هذا الفراغ الممتد المترامى ، كأنما انتقلت من صحراء إلى صحراء. أهذه هى حقا عاصمة المشرق؟. أين القصور، أين البيوت ، أين الشوارع ، أين الحوارى ؟؟. لا شىء إلا أرضا تعلو جوانب منها أعشاب ترعاها الماشية ، وثمة تجمعات هنا وهناك من خيام تقوم على غير نظام ، يتجمع أمامها نساء وفتيات يغزلن أو يحلبن البقر والمعيز . وهن عرايا أيضا ، وجمالهن لا بأس به ولكن تخفيه القذارة

والإهمال والفقر . الحق أنى لم أتماد فى نقد مظاهر البؤس فى هذا البلد الوثنى الذى قد يكون له من وثنيته عذر ، ولكن أى عذر أعتذر به عن أمثال هذه المظاهر فى بلدى الإسلامى ؟. وقلت لنفسى :

ـــ انظر وسجل واعترف بالحقيقة المرة .

وفيما عيناى تدوران فى حيرة ودهشة استحوذ علىّ شعور بالهيمان استخرج من أعماق العاشق الكامن . تذكرت حليمة بقوة مهيمنة وغشيت صورتها الأرجاء مع الحرارة وأشعة الشمس . وحرت من أمرى وقتا ولكنى لمحت فتاه تعدو ، قادمة من ناحية الفندق متجهة كالسهم نحو بقعة مزدحمة وغاصت فى عبابها فتوارت عن عينى . لعلى لمحتها وهى ذاهبة أيضا . لعلى لمحتها وأنا مشغول بالمشاهد فأحدثت أثرها وأنا شبه نائم أو ذاهل . إنها وراء ما اجتاحنى من انفعال وجدانى عميق . حقا إنها مشرقية نحاسية عارية ولكن تكوين وجهها صورة قريبة جدا من صورة حليمة حبيبتى المفقودة ، بل قررت أن أقتنع بأنها حليمة المشرق ، وأننى سأراها مرة أخرى . وانتقلت من مكان إلى مكان ، لا أرى جديدا ، أكابد فتورا يتزايد ، وقلبى ينسحق تحت الأسى والشجن ، وخيالى يبحث عن حليمة المشرق . فى الغربة أتخلق من جديد فى صورة جديدة . تتكون فى أعماقى اندفاعات جريئة لإشباع الرغبات وممارسة المغامرات . إنى أتخلى عن حضارة وأسلم لحضارة جديدة . أتوق إلى الحياة بعيدا عن الرقباء . الرقباء الذين يتجسدون فى

الخارج والذين ينبضون فى الداخل . ووجدتنى عند العصر على حافة خلاء جديد لا أدرى كيف ساقتنى إليه قدماى المتعبتان . خلاء نظيف خال من الماشية ومن الرعاة تحف به من الجانبين أشجار عالية ضخمة لم أر مثلها من قبل ، ويقوم فى أعماقه قصر ذو سور محيط . يحرس مداخله طابور من الفرسان المدججين بالسلاح . ولم يكن بالساحة إلا نفر من الغرباء أمثالى يقلبون أعينهم فى دهشة وإعجاب . كيف قام هذا القصر بين الخيام ؟.. إنه ولا شك قصر ملك المشرق ، وطبعا غير مسموح بزيارته ، وكنت ظننت أن رئيس المشرق ما هو إلا شيخ قبيلة يقيم فى خيمة تناسبه حجما وأناقة . سألت أحد الغرباء :

ــ أهو قصر الملك .

فأجاب باهتمام :

ــ هذا ما يبدو .

الحق أنه لا يقل فخامة عن قصر الوالى فى وطنى ولكنه يبدو غريبا مقطوع الصلة بما حوله . وأخذ الجو يلطف ، ويسفر عن وجهه الربيعى ، ولكن شعورى بالتعب والجوع انفجر كالغول فرجعت ألتمس سبيلى إلى الفندق . ووجدت فام صاحب الفندق جالسا على أريكة من سعف النخل عند المدخل فلاقانى بابتسامة وقال :

ــ هل تناولت غداءك فى السوق ؟

فقلت بعجلة :

ــ لم أعرف موقع السوق بعد والجوع ينهشنى أيها الرجل الكريم ..

وجلست أمام الطبلية أمام حجرتى فجاءنى قام بخبز الشعير وشريحة من لحم البقر مقلية فى الدهن مخففة بالخل وطبق ملىء تمرا وسفرجلا وعنبا ، وسألنى :

ــ هل آتيك بخمر البلح .. ؟

فقلت وأنا أقبل على الطعام بنهم :

ــ أعوذ بالله .

فتمتم الرجل :

ــ الخمر موسيقى الرحلات !

أكلت حتى شبعت ، واستأذنته فى الجلوس معه على الأريكة فرحب بى جدا ، فجلسنا والمساء يتيه بقمر يوشك أن يصير بدرا . تلقيت نسائم عذبة غريبة كل الغرابة عن قيظ النهار ، وسرعان ما زحف على الهدوء والاسترخاء . قال قام :

ــ توجد خيام للضرب والرقص ما يتمناه الغريب ..

فقلت :

ــ فلنؤجل ذلك إلى وقته ..

ــ هل أعجبك ما رأيت ؟

فقلت بفتور :

ــ لا شىء يستحق المشاهدة سوى القصر ولكننى فى حاجة إلى

معلومات لا يعثر عليها عادة فى الطريق ..

— صدقت فيما قلت ..

— قصر الملك آية من الآيات !

فقال باسما :

— لا يوجد ملك فى دار المشرق !

لعله قرأ الدهشة فى وجهى فواصل :

— دار المشرق عبارة عن عاصمة وأربع مدن ، لكل مدينة « سيد » هو مالكها ، يملك المراعى والماشية والرعاة ، الناس عبيده ، يخضعون لمشيئته نظير الكفاف من الرزق والأمن ، فالقصر الذى شاهدت هو قصر سيد العاصمة ، هو أكبر السادة وأغناهم ولكن لا هيمنة له على أحد منهم ، ولكل سيد قوة مسلحة من المرتزقة يجلبهم عادة من الصحراء ..

يا له من نظام غريب !. إنه يذكرنى بالقبائل الجاهلية ولكنه مختلف ، كما يذكرنى بملاك الأرض فى وطنى ولكنه مختلف أيضا . جميعها تمثل درجات متفاوتة من الظلم ، وعلى أى فإننا — نحن دار الوحى — أفظع من سائر الخلق . وأخذت حذرى فاكتفيت بالإصغاء حابسا ملاحظاتى النقدية كما يجدر بالغريب . وسألته :

— كيف شيد هذا القصر الباهر وجميع رعيته من الرعاة البسطاء ؟

فأجاب فام فى مباهاة :

ـــ جاء بالمهندسين والعمال من دار الحيرة ، وزوده بأجمل الأثاث والتحف التى تفخر بصنعها دار الحلبة ..

وصمت قليلا ثم قلت :

ـــ حدثنى يا سيد فام عن دينكم ..

ـــ أهل المشرق جميعا يعبدون القمر ، فى ليلة البدر يتجلى الإلٰه فى تمامه فيهرعون إلى الخلاء ويحيطون بالكاهن لـلصلاة ، ثم يمارسون طقوسه رقصا وغناء وسكرا وغراما ..

فذهلت كثيرا ثم تساءلت :

ـــ وبذلك يضمنون الخلود فى الجنة ؟

ـــ لا نعرف خلودا ولا جنة ، وليس لنا إلا ليلة البدر !

فترددت قليلا ثم سألت :

ـــ ألا يوجد طب وتعليم ؟

فقال باستهانة :

ـــ أبناء السيد يتعلمون الفروسية ومعلومات عن الإلٰه القمر ، وفى كل قصر طبيب وارد من الحيرة أو الحلبة ، أما الناس فيتركون للطبيعة ، ومن يصبه مرض يعزل حتى يبرأ أو يموت فتأكله الجوارح ..

فنظرت إليه كالمتسائل فاستدرك :

ـــ إنها سنة القمر وتعاليمه وهى تتوافق مع الحياة تماما ، لذلك فنحن شعب يغلب عليه المرح والرضى ، نحن أسعد الشعوب يـا سيـد

قنديل !

قلت لنفسى إنه فقدان الوعى بلا زيادة ولا نقصان ولكنى قلت له :

ــ هنيئا لكم يا سيد فام !

وقضيت شطرا من الليل وأنا أدون فى دفترى تاريخ الرحلة ومشاهدها ، وقطعت شطرا آخر مسهدا أفكر فيما صادفنى من أحوال وأفكار ، وأتأمل عذابات الإنسان فى هذه الحياة ، وأتساءل هل حقا يوجد فى دار الجبل الدواء الشافى لكل داء ؟!.

ومرت أيام بلا جديد سوى أننى وجدت الشجاعة على التخفف من ملابسى مكتفيا بسروال قصير وطاقية . وذات صباح دهمتنى حركة غير عادية منبثة فى الأرجاء وتهامس حميم بين النزلاء حتى هرعت إلى فام أسأله عما هنالك فهتف :

ــ هذه ليلة البدر .. ليلة حضور الإله والعبادة !

فهزنى الخبر ووعدنى بمشهد سعيد حقا من يراه . وذهبت من فورى إلى السوق فالتقيت برفاق التجار المعسكرين عند مدخله . كانوا ينفقون نهارهم فى العمل وليلهم فى الملاهى . وسرعان ما انهمكوا فى المقايضة بهمة وخبرة . ولاحظت أنهم لا يتعاملون مع الأهالى ، ولكن مع مندوبى السيد صاحب العاصمة فهو البائع والشارى وحده . أما بقية السوق فعبارة عن ممر أقيمت على جانبيه خيام لبيع الأغذية والأدوات البسيطة كالأمشاط والمرايا الصغيرة والحلى الرخيصة من الخرز .

وتناولت غذائى فى الفندق ثم ذهبت إلى ساحة العبادة والشمس تميل نحو الغروب . وكان الناس من الرجال والنساء يزدحمون فى كثافة هائلة فى شكل دائرة ترك وسطها خاليا . كانوا ينتظرون عرايا وأجسادهم النحاسية تنضح بالعرق وتنفث فى الجو رائحة آدمية مثيرة . وقبل المغيب ركضت سحب فحجبت القبة الزرقاء وتساقط رذاذ مقدار خمس دقائق فتلاقى المطر بهتافات الفرح الصاعدة من الأفواه المترعة بالإيمان والتحفز للمغامرة . وما إن غابت الشمس فى ناحية حتى تهادى البدر صاعدا من الناحية المقابلة عظيما جليلا عذبا واعدا فهلل الناس حتى ذعرت الطيور فى الجو . مضى يصعد مرسلا ضوءه الذهبى على الأجساد العارية الباسطة أذرعها كأنما لتقبض على الضوء السابح . ومر وقت غير قصير فى صمت خاشع حتى استقر القمر فى كبد السماء . عند ذلك ند صوت منذر طويل عن بوق فى مكان ما فانشق طريق فى شمال الدائرة موسعا لقادم وقور ، طويل القامة ، مرسل اللحية منفوش الشعر ، عارى الجسد ، تقدم متوكئا على عصا طويلة حتى وقف فى مركز الدائرة . تركزت الأعين على كاهن القمر ، وازداد الصمت صمتا . ولبث الرجل فترة جامدا ، ثم ترك عصاه تسقط عند قدميه ، ورفع رأسه وذراعيه نحو القمر فتبعته الآلاف المؤلفة من الأذرع . وصفق بيديه فانطلق من الحناجر نشيد واحد فى لحظة واحدة . انطلق بقوة وشمول فكأن الأرض والسماء وما بينهما قد شاركت فيه منتشية بسكر الغناء

ووجد العاشقين . وانسربت إلى أعماق نغمة مفعمة بالحرارة ، مميزة الوحشية والخشونة ، مجللة بدوى وأصداء ،فجاش صدرى بانفعالات ترتعش باللذة والرهبة . وتصاعدت لذروة الانفجار ، ثم أخذت فى الهبوط الوئيد ، خطوة فى إثر خطوة ، حتى استنامت للهدوء وغاصت فى الصمت . وأنزل الكاهن ذراعيه ونظر فيما أمامه فتبعته الأذرع وتحولت إليه الأعين . والتقط بوقار عصاه فقبض عليها بيسراه وأنشأ يقول :

ـــ ها هو الإلـٰه يتجلى بجماله وجلاله ، يحضر فى ميعاده ، لا يتخلى عن عباده ، فنعم الإلـٰه وهنيئا للعباد .

ندت عن البحر المحيط همهمة شكر ، فواصل الكاهن حديثه :

ـــ إنه يقول لنا فى دورته أن الحياة لا تعرف الدوام ، وأنها نحو المحاق تسير ، ولكنها طيبة للطيب ، وبسمة للباسم ، فلا تبددوا ثروتها فى الحماقة ..

انطلقت من الحناجر زغاريد كالشهب وصفقت الأيدى على إيقاع راقص . واستمر الكاهن يقول :

ـــ حذار من الخصام ، حذار من الشر ، الحقد يفرى الكبد ، النهم يتخم البطن ويجلب الداء ، الطمع هم ووبيل ، امرحوا ، والعبوا ، وانتصروا على الوساوس بالرضى ..

وفى الحال ترامت دقات طبول ، فاهتزت الخواصر راقصة ، ولبت

نداءها الأثداء والأرداف ، وتمادت الحركة منتشرة مترامية تحت ضوء القمر . رقصت الأرض وباركها البدر ، واختلط العناق بالرقص ، واندمج الجميع فى غرام شامل تحت ضوء القمر . جعلت أنظر بعينين ذاهلتين ، كأننى فى حلم شباب ، دمى يشتعل فى عروق ، ورغباتى تتلاطم فى جنون ، وقلبى يتوق إلى الجنون . ورجعت وأنا أترنح من شدة الانفعال ، وقبضة الشهوة تشد بعنف على أعصابى الملتهبة . ولبثت فى غرفتى بالفندق ساهرا على ضوء شمعة ، أدون كلمات فى دفترى ، وأفكر فى المحن التى تتربص بإيمانى وتقواى ، وأتذكر عهد تربيتى الدينية والعقلية على يد الشيخ مغاغة الجبيلى . واستسلمت لأفكارى فى استرخاء بائس حتى اخترقت أذنى بغتة صرخة استغاثة . وثبت قائما متحفزا فوجدتنى فى ظلام دامس ، وسرعان ما انتبهت إلى أننى كنت نائما ، بل إن النوم كان يغشى الكون كله . واستيقظت مبكرا ، وقلت وأنا أهم بمغادرة الفندق :

ـــ هل أستطيع كغريب أن أقابل حكيم العاصمة ؟

فقال فام :

ـــ هو كاهن القمر ، يرحب دائما بلقاء الغرباء ، سأعد لك لقاء معه ..

وذهبت إلى السوق فلم أجد أحدا من التجار . وأخبرنى القانى بن حمديس أنهم ذهبوا إلى القصر لإنهاء بعض الإجراءات مع حاجب

السيد . وسألنى :

ــ هل قررت أن ترحل مع قافلتى ؟

فأجبت بتلقائية :

ــ أجل ، لا شيء يستحق المشاهدة بعد ..

ــ صدقت فهو بلد فقير ولكن الرحلات القادمة تعد بمشاهد ثرية ..

فقلت بصدق :

ــ ما يهمنى حقا هو دار الجبل !

فابتسم قائلا :

ــ متعك الله بأجمل ما خلق ..

واشتدت وطأة الملل والحر ، فرحت أسلى نفسى بالمشى فى السوق . ورغما عنى توقفت مذهولا أمام خيمة رجل عجوز يعرض التمر فى أوعية من الخوص . لمحت وراءه فى عمق الخيمة الفتاة الفاتنة ، حليمة المشرق النحاسية العارية ، وهى تزق حمامة ، منطلقة بقامتها الرشيقة ونضجها الذى لم ينل منه السوء بعد . وقفت محملقا ناسيا ذاتى ، أرى الماثلة أمام عينى ، وأتذكر من خلالها حليمة بوجهها البدرى وعينيها السوداوين وعنقها الطويل . أرى تاريخ قلبى كله متجمعا فى لحظة ومثال ، وقد التقى فى بؤرته يقظة الماضى وسحر الحاضر وحلم المستقبل . أى هيام ينسكب فى روحى من هذا التكوين

الفريد !. أى نداء وأى أسر ، رنوت إليها غارقا فيها ، متجاهلا أباها العجوز ، وحيائى العتيق ، وما ألزم به نفسى من قيود الأدب . ونسيت تماما الملل والحر والخطط وأحلام الرحلة وحلم الجبل ، وحتى الآمال المدخرة من أجل الوطن . نسيت كل شيء لأنى ملكت كل شيء وطوانى فى صدره الرضى والقناعة والغنى . وتراجعت الفتاة حتى توارت عن ناظرى فوجدت نفسى منفردا بنظرات العجوز الثابتة . باخ جنونى السعيد فسقطت فى قبضة الحياة اليومية ذات الوساوس والعرق ، ومضيت أبتعد . وأدركنى صوت هرم ينادى :

— يا غريب !

فقلت لنفسى فى المحذور وقعت . وتلفت متوقفا . قال برقة :

— تعال ..

فدنوت منه فى حياء فسألنى :

— ألم تعجبك ابنتى عروسة ؟!

فانعقد لسانى دهشة و لم أجب فعاد سأل :

— ألم تعجبك عروسة ؟.. لا مثيل لها فى المشرق !

تمتمت بارتباك :

— معذرة ..

فقال بفخار :

— ما رآها شاب إلا أحبها ...

فقلت معتذرا وأنا أظنه يسخر منى :

ـــ ما قصدت سوءا قط ..

فقال العجوز بحدة :

ـــ لا أفهم لغة الغرباء ، أجبنى هل أعجبتك ؟

فترددت مليا ثم قلت :

ـــ إنها تستحق الإعجاب كله .

ـــ أجبنى بصراحة هل أعجبتك ؟

فحنيت رأسى معترفا فقال :

ـــ ادخل ..

ترددت فتناول يدى وجذبنى إلى الداخل . ونادى عروسة فجاءت بجسمها العارى وجعلت ترنو إلى ، حتى سألها :

ـــ ما رأيك فى هذا الغريب المغرم بك ؟

فأجابت بلا حياء أو تلعثم :

ـــ إنه مطلوب يا أبى ..

فضحك العجوز قائلا :

ـــ أخيرا نوّرك القمر !

ومضى بنا إلى ركن الخيمة وأسدل علينا ستارا . وجدتنى منفردا بها فى أمان كما بدا ولكن فى حيرة أفسدت على السعادة المتاحة الشاملة . أيعنى هذا الزواج فى هذه الدار ؟أيعنى إباحية كالتى شهدتها تمارس تحت

ضوء القمر ؟. وراحت تنظر إلى وتتنظر ، وحبى يهفو إليها من تحت غشاء القلق . وسألتها :

ــ ما معنى هذا يا عروسة ؟

سألتنى :

ــ ما اسمك ومن أى البلاد أنت ؟

ــ اسمى قنديل ، ومن دار الإسلام ..

ــ عم تسأل ؟

فسألتها وأنا أشير إلى الخارج :

ــ أهو أبوك ؟

ــ نعم .

ــ أى علاقة بيننا الآن ؟

ــ عرف أبى أنك تعجبنى فدفعك إلى ؟

ــ هذا هو المتبع هنا ؟

ــ طبعا .

ــ وماذا بعد ذلك ؟

ــ لا أدرى ، لكن لماذا تغطى وسطك بهذه الوزرة ؟

وراحت تنزعها بازدراء ، ووقفنا نترامق ، وفجأة ركعت طارحا على عاتقى كل هم ، وضممت ساقيها إلى صدرى . وعند الظهيرة قال لى الأب :

ــ ادعنا إلى الغداء ..

فذهبت وجئت بلحم وفاكهة وتناولنا طعامنا كأسرة واحدة . وعقب استراحة قصيرة قال العجوز :

ــ اذهب مصحوبا بالسلامة ..

فسألته بقلق :

ــ هل آتى غدا ؟

فقال دون مبالاة :

ــ هذا شأنها وشأنك ..

رجعت إلى الفندق فاقد القلب والعقل . تلخصت الحياة كلها فى عروسة . والتمست عند فام مزيدا من الضوء فقال :

ــ هذه العلاقة تمارس هنا بلا قيود ، ما إن تعجب فتاة بفتى حتى تدعوه على مرأى ومسمع من أهلها ، وتنبذه إذا انصرفت عنه نفسها محتفظة بالذرية التى تنسب إليها ..

وكرهت ذلك من صميم قلبى غير أن فام قطع على أفكارى قائلا :

ــ سنذهب عصرا إلى كاهن القمر وهو يرحب بك ..

كان حماسى للقاء قد فتر شيئا ما ولكنى استعنت عليه بالعزيمة حتى أنجز كتاب رحلتى على أكمل وجه . واصطحبنى فام عصرا إلى خيمة الكاهن التى قامت فى بقعة خالية ، وكان يجلس متربعا على فروة أمام مدخلها فرمقنى متمعنا وقال :

ـــ اجلس .. أهلا بك ..

وفارقنا فام فقال الكاهن :

ـــ أخبرنى فام أنك تدعى قنديل محمد العنابى وأنك من دار الإسلام ؟

فقلت متوددا :

ـــ هذا حق ..

فقال وهو ينفذ بعينيه فى صدرى :

ـــ واضح أنك تجرى وراء المعلومات شأن الرحالة الغريب !

فقلت برقة :

ـــ عند الحكيم توجد المعانى التى تخفى على المشاهد العابر ..

فقال بهدوء :

ـــ كن صريحا ولا خوف عليك فلن تخرج المعانى إلا لمن يطرق الباب بصدق ..

تفكرت مليا ثم قلت بادئا بالموضوع الذى يستغرقنى :

ـــ أعجب ما صادفنى فى المشرق علاقة الرجل بالمرأة ..

فابتسم قائلا :

ـــ نصف المصائب فى البلدان إن لم يكن كلها تجىء من القيود المكبلة للشهوة ، فإذا شبعت أمكن أن تصير الحياة لهوا ورضى !

فقلت بحذر :

ـــ فى دارنا يأمرنا الله بغير ذلك !

ـــ عرفت أشياء عن داركم ، عندكم الزواج وكثيرا ما يتمخض عن مآس مؤسفة ، والناجح منه يستمر بفضل الصبر ، كلا يا صاحبى ، حياتنا أبسط وأسعد .

فتساءلت بقلق :

ـــ قد تزهد المرأة عندكم فى رجلها وهو ما زال مقيما على حبها ؟

ـــ النساء كثيرات ، والسلو يسير ، كل متاعبكم تجىء من الحرمان ..

ـــ حتى الحيوان يغار على شريكته !

فابتسم قائلا :

ـــ يجب أن نكون أفضل من الحيوان ..

فتمتمت وأناأخفى تقززى :

ـــ لا سبيل إلى التلاقى ..

ـــ إنى مسلم بهذا ، ولكن عليك أن تفهمنا جيدا ، إننا ننشد البساطة واللعب ، إلٰهنا لا يتدخل فى شئوننا ، إنه يقول لنا كلمة واحدة وهى أنه لا شىء يدوم فى الحياة وأنها إلى محاق تسير ، بذلك أشار إلى الطريق فى صمت ، أن نجعل من حياتنا لعبا ورضى ..

فقلت متشجعا بحرارة الحديث :

ـــ لقد سمعت موعظتك ، ووجدتها لا تنطبق على السيد المالك لكل

شيء ..

فهز رأسه فى أسى وقال :

ـــ كثيرا ما يحوم الغرباء حول ذلك ، ولكن السيد هو الذى يدفع عن الدار هجمات البدو . وهو ـــ وبقية السادة ـــ أملنا فى التصدى لأطماع دار مثل دار الحيرة ، أجل الحرب تتهددنا ، والسادة هم الذين يعدون أنفسهم للدفاع ، وهم أيضا الذين يتصدون لأى عدوان فى الداخل فيهيئون للعبيد حياة آمنة ، هل تستكثر عليهم بعد ذلك أن يملكوا كل شيء لينفقوا على السلاح والجنود المرتزقة ؟!

فقلت متحديا :

ـــ يوجد نظام أفضل يوفر للناس كافة حقوقهم ويعدهم للدفاع عن دارهم عند الحاجة !

فمط الرجل شفتيه مضمومتين وقال بحسم :

ـــ الكائنات فى دارنا أنواع : نبات ، وحيوان ، وعبيد ، وسادة ، ولكل نوع أصل يرجع إليه غير أصول الأنواع الأخرى ..

فقلت وأنا فى غاية الاستياء :

ـــ الناس عندنا إخوة من أب واحد وأم واحدة لا فرق فى ذلك بين الحاكم وأقل الخلق شأنا ..

فلوح بيده استهانة وقال :

ـــ لست أول مسلم أحادثه ، إنى أعرف عنكم أشياء وأشياء ،

ما قلت هو حقا شعاركم ولكن هل يوجد لتلك الأخوة المزعومة أثر فى المعاملة بين الناس ؟

فقلت بحرارة وقد تلقيت طعنة نجلاء :

ـ إنه ليس شعارا ولكنه دين ..

فقال ساخرا :

ـ ديننا لا يدعى ما لا يستطيع تطبيقه ..

فقلت وقد شدتنى الصراحة إلى أعماقها :

ـ إنك رجل حكيم ، إنى أعجب كيف تعبد القمر وتتصور أنه إلـٰه ؟!

فقال بجدية وحدة لأول مرة :

ـ إننا نراه ونفهم لغته . هل ترون إلهكم ؟

ـ إنه فوق العقل والحواس ..

فقال باسما :

ـ إذن فهو لا شيء !

كدت ألطمه ولكنى كظمت حنقي واستغفرت ربى ، وقلت :

ـ إنى أسأل الله لك الهداية .

فقال باسما :

ـ وإنى أسأل إلـٰهى لك الهداية .

وصافحته مودعا ، ورجعت إلى الفندق ثائر الأعصاب موجع

القلب . وعاهدت نفسى أن أسمع — فى رحلتى — كثيرا وأن أناقش قليلا أو لا أناقش على الإطلاق . وقلت لنفسى متحسرا :

— ديننا عظيم وحياتنا وثنية !

ومع اليوم التالى ذهبت مبكرا إلى السوق ، إلى خيمة عروسة ، رحب بى العجوز باسما وقالت عروسة بدلال :

— تأخرت حتى قلت إنه هرب ..

ولثمت ثغرها فهمت بالذهاب إلى ركنتنا المستور ولكننى أوقفتها وقلت لأبيها :

— يا والدى أريد أن أتزوج من عروسة .

فقهقه العجوز فاضحا فاه المترم وقال :

— كما تفعلون فى بلادكم ؟

— أجل ، وفى تلك الحال سأصطحبها معى فى رحلتى حتى نرجع معا إلى وطنى ..

فنظر الرجل إلى ابنته وسأل :

— ماذا ترين يا عروسة .

فقالت عروسة بسرور :

— تحت شرط أن يتعهد بإرجاعى إلى المشرق إذا راق لى ذلك ..

فقلت بلا تردد :

— لك هذا يا عروسة !

— ولكننى لا أملك حق الموافقة النهائية ، فنحن جميعا عبيد السيد وهو مالكنا الشرعى ، فاذهب إلى القصر واعرض على الحاجب شراء عروسة ..

اعترضتنى هذه العقبة التى لم ترد لى بحسبان ولكننى لم أجد بدا من تذليلها . وأمضيت نصف النهار مع عروسة فى سعادة وراحة عميقتين . ولما رجعت إلى الفندق أفضيت إلى فام بما يشغلنى فوعد باصطحابى إلى الحاجب . هكذا قدر لى أن أعبر باب القصر ، وأن أشهد جانبا من حديقته الضاحكة بأزهارها ونخيلها،وأنا فى طريقى إلى ركن الحاجب.. كان يجلس فى صدر حجرة واسعة على أريكة كبيرة من خشب الورد ، مفروشة بالوسائد والمساند الناعمة . كان فوق الستين ، بدينا ، ثقيل النظرة ، مغلفا بالعزلة والكبرياء . لثم فام يده وعرض مطلبى ولكن الحاجب لوح بيده رافضا ، وقال :

— منعنا البيع لحاجتنا إلى زيادة العبيد .

ونظر إلى وقال :

— انضم إلينا إذا شئت كما فعل فام فتتدرج فى جملة العبيد وتتمتع بالأمن والرضى والجارية معا ..

فشكرت له كرمه وغادرنا القصر بقلب ينوء بالخيبة والشجن . وقال لى فام ونحن ماضون نحو الفندق :

— استمتع بفتاتك حتى تشبع ، وسرعان ما تشبع !

فضاعف من أحزانى وهو لا يدرى . وواصل حديثه قائلا :

ــ لم يكن الوقت مناسبا لإنجاح مسعاك فثمة أنباء عن تحفز الحيرة لإعلان الحرب علينا ..

فسألته بقلق :

ــ وما الأسباب وراء ذلك ؟

فضحك بمرارة قائلا :

ــ الطمع فى كنوز السادة والمراعى الغنية ، ولن تعوزهم علة يعتلون بها ..

وساورنى القلق فزاد من متاعب قلبى . وافترقنا عند أقرب نقطة إلى السوق فذهبت إلى خيمة عروسة من فورى . واستقبلنى العجوز متفحصا وجهى فقال :

ــ خاب مسعاك والقمر ..

وضحكت عروسة ضحكة لا معنى لها فرددت بأسف :

ــ خاب مسعاى .

فقال العجوز ضاحكا وهو يومئ إلى عروسة :

ــ إنها تنتظرك !

فقلت بأسى :

ــ يعز على أن تكون علاقتى بها عابرة .

فقال العجوز ساخرا :

ـــ كل علاقة عابرة يا غريب .

فقلت بحرارة :

ـــ تمنيت أن تكون دائمة .

فقال مقهقها :

ـــ يا لك من رحالة أنانى ..

ثم وهو يواصل القهقهة :

ـــ حذار من التعقيدات فنحن قوم بسطاء ونحب البساطة !

ـــ كأنكم لا تعرفون الحب !

ـــ نعرف أنه متعة ليلة أو أسبوع أو شهر أو عام فى الأحوال الجنونية . فماذا تريد أكثر من ذلك ؟

سألته جادا :

ـــ ماذا تقترح لمجنون مثلى ؟

ـــ استأجرها لمدة تتجدد حتى تنتهى !

ـــ هل أرجع فى ذلك إلى الحاجب أيضا ؟

ـــ كلا ، هذا حقى بصفتى والدها ، أى مدة تريد ؟

ـــ أطول مدة ممكنة .

ـــ استأجرها شهرا بشهر .

ـــ ليكن .

ـــ ولكن الاتفاق ينتهى حال ترغب هى فى ذلك .

فحنيت رأسى موافقا فقال :

ـــ الشهر بثلاثة دنانير ..

تم الاتفاق ومضيت بعروسة إلى حجرتى بالفندق . صممت على ألا أفسد سعادتى ، وأن أعتبر الساعة الراهنة هى العمر كله . ولكنى قلت لها برجاء :

ـــ دعينى أستر جمال جسدك .

فقالت بانزعاج :

ـــ لا تجعل منى أضحوكة .

فتراجعت مسلما بكل شىء . وتراءت لى وهما سعيدا ينذر بالزوال فلذت بها بقلب يطارده شبح الفراق والحزن . ولكن الحياة طابت مع الفاتنة الرائعة ، ووعدت بالاستقرار والأمان للقلب والأعصاب . وكانت تحب الانطلاق فى المراعى والتجول فى السوق فسرنا معا فى حبور ، ورآنى القانى بن حمديس فأقبل نحوى قائلا :

ـــ نحن راحلون مع الفجر .

فقلت فى حياء :

ـــ ولكننى باق .

فقال ضاحكا :

ـــ ستجد قافلة كل عشرة أيام ..

إنى مستغرق بالحب ولا شأن لى بالزمن . لا أهمية الآن للرحلة

ولا للمهمة ، ولو بقيت لآخر العمر . وها هى بشائر الأمومة تهل بأفراحها القلبية وأسقامها الجسدية فأستعيذ بها من تقلبات القلوب وجوامح الأهواء ، وأطمح إلى حياة مستقرة ولو ربطتنى فى النهاية بالمشرق ، وغيرت بشرتى وأحلامى . وقلت ساخرا من نفسى :

ـــ يبدو أننى خلقت للحب لا للرحلات !

ودار الزمان فجاءت ليلة البدر وهرع العباد إلى ساحة العبادة . ذهبنا إلى الساحة زوجين حتى انحشرنا فى الزحام . هناك قالت لى بجدية :

ـــ هذه ليلة الإلـٰه ينفصل فيها القرين عن قرينه ..

وفرت من بين يدى فذابت فى الجموع . لبثت وحيدا مضطربا غاضبا مسلوب الإرادة والسرور.وتتابعت الطقوس وأنا أتساءل عما تفعله مع آخر غريب . ولما جاءت ساعة العناق تعرضت لى امرأة فى الأربعين على شيء من الجمال وفتحت لى ذراعيها ، رأيت فيما يقع لى ما يقع مع عروسة فى مكان ما . ودار السقاة بخمر البلح فشربت قدحا ، فغبت عن وعيى واندمجت فى صلاة المشرق . وعند الفجر تكومت مقرفصا عند مدخل الفندق حتى وافتنى عروسة وهى تترنح . نهضت إليها واجما فتأبطت ذراعى إلى حجرتنا وهى تسألنى :

ـــ أعجبتك المرأة ؟

فقلت بمرارة :

ـــ لقد نجسنا علاقة مقدسة يا عروسة ..

فقالت بانزعاج :

ـــ إنك غير مؤمن يا قنديل ولا حيلة لى فى ذلك .

ثم أقبلت علىّ باسمة وهى تقول :

ـــ ما زلت أحبك ، ما زلت رجلى الوحيد ..

أعترف بأن حبى لم يضعف ، وبأن الخوف من الفراق كان يلهبه . باتت سعادتى وشقائى . وحرقنى الصيف فهو جحيم ، وفيه تنمحق الخضرة وتقتات الماشية على المخزون المجفف من الأعشاب ، ويجىء الخريف فتهدأ النيران قليلا ويسقط الرذاذ من حين لحين ، ثم يقبل الشتاء بجوه اللطيف المعتدل وأمطارة الغزيرة فتحيا الأرض وتطرب الماشية ويظل العراة عراة . وتنجب عروسة وليدها الأول فيسمى « رام ابن عروسة » كأنما أنجبته وحدها ولا شأن لى به . ويقول لى أبوها :

ـــ ها أنت تدخل فى عامك الثانى وهى ما زالت تحبك ، أأنت ساحر يا غريب !!.

وبزغت بشائر أمومة جديدة فجاء عام ابن عروسة ، وتبعه بعد عام لام ابن عروسة وحملت للمرة الرابعة حتى اشتهرت علاقتنا بين القوم بالشذوذ ، وقيل إنى أشدها إلى بقوة السحر الذى لقنته فى دار الإسلام . وانسقت وأنا لا أدرى إلى تربية رام على مبادىء الإسلام . وكان ينمو أقوى وأسرع من أقرانه لما أوفره له من عناية وغذاء وقد أعطى مثالا لما كان ينبغى أن يكون عليه أطفال المشرق لولا الظلم والعبودية . كفرت

بتلقينه مبادىء الإسلام عن إهمالى الاضطرارى لعقيدتى احتراما للبلد الذى يؤوينى ، غير أن عروسة لم تخف استياءها وقالت لى بجدية :

ـ إنك تنشئه على الكفر وتعده لحياة تعيسة فى بلده ..

فقلت برقة :

ـ إنى أنقذ روحه كما تمنيت أن أنقذ روحك ذات يوم ..

فقالت بصرامة :

ـ لن أسمح لك بهذا أبدا ..

تبدت صارمة عنيدة حتى جزعت خوفا على حبى . وأفضت إلى أبيها بهمومها ونحن فى زيارة له فهاله الأمر وصاح بى :

ـ ابعد عن ابننا يا غريب ..

وخيل إلى أن النبأ تسرب إلى الخارج ، رغم تكتمنا له ، وأن نظرات الغضب تحرقنى فى الطريق . وطاردنى القلق حتى قلت لنفسى :

ـ البناء مهدد بالانهيار ..

وصدق حدسى فجاءنى فام صاحب الفندق فأخذنى من حجرتى إلى حجرته حيث وجدت ضابط شرطة فى انتظارى . سألنى :

ـ أنت قنديل محمد العنابى ؟

فأجبت بريق جاف :

ـ نعم .

فقال بجفاء :

ـــ ثبت أنك تحاول تنشئة ابنك الأكبر على الكفر ..

فسألته بجزع :

ـــ كيف ثبت هذا ؟

ـــ نحن أدرى بواجبنا ، اسمع فلم أحضر للمناقشة ، صدر أمر السيد بالتفرقة بينك وبين رفيقتك وأبنائها ، وأن ترحل عن المشرق مع أول قافلة ..

هممت بالكلام ولكنه قال بغلظة :

ـــ لم أحضر للكلام ، أنت محجوز معى حتى يذهبوا بالمرأة والأولاد إلى أبيها ، وستظل تحت الحراسة حتى تلحق بالقافلة ..

فقلت بضراعة :

ـــ دعنى أودعهم ..

فقال بخشونة :

ـــ لقد وقع عليك أخف جزاء فكن شكورا ..

ورجعت إلى حجرتى بعد ساعة ـــ التى تحولت إلى السجن ـــ فوجدتها خالية من الأم والأولاد والحب والأمل . لحظة كئيبة تنداح فى أعماق النفس فتنكشف الحياة عن حلم أو وهم . ولحق بى فام فرمقنى بعطف وقال :

ـــ تحمل كما يجدر برجل رحالة !

فقلت بصوت متهدج :

ــ حزنى شديد جدا يا فام ..

تفرس فى وجهى قليلا ثم قال :

ــ أطلق دموعك ، الرجال يبكون أحيانا ..

فقلت وأنا أشد على محابس دموعى :

ــ تبخرت مسرات الحياة ..

ــ إنها تتجدد وتجىء أيضا بالعزاء ..

وربت منكبى ثم قال :

ــ تعلم أن الرحالة لا يجوز أن يسعى وراء علاقة دائمة ..

دار الحيرة

تحركت القافلة فى ظلمة الفجر فى ظلمة الفجر المبشرة . شد قلبى إلى الوراء وغص حلقى بالحزن والدموع ، وتجمعت النجوم فوقنا تنظر إلينا وننظر إليها وانعدم العزاء . كما فارقت وطنى منذ حوالى خمسة أعوام محبطا بخيانة الأم والحبيبة والولاة . انقلبت رحالة مرة أخرى أفكر بالبلدان والدفاتر ولكن أين القلب وأين العقل أين ؟ وقلت إن هذه النجوم أقرب إلىّ من عروسة والأبناء . وستظل القوافل تسير حاملة الأموال والآمال فمن يحمل الأحزان ؟. ويتلاشى الظلام ويشرق النور وتتبدى الصحراء بلا حدود كأنها الفناء . ترى ماذا يقولون عنى فى الوطن ولمَ لم أصادف مرَّة أخرى القانى بن حمديس . وقلت لنفسى إن خير ما تفعل يا رحالة أن ترى وتسمع وتسجل وأن تتحاشى التجارب . وأن تعاود أحلامك عن دار الجبل . وأن تحمل الدواء الشافى لجراح الوطن . وقطعنا المسافة ما بين المشرق والحيرة فى شهر ثم عسكرنا على كثب من واحة الزمام لندخل دار الحيرة عند منتصف الليل .. وواصلنا السير مع الليل حتى تبدى لنا سور الدار تحت ضوء النجوم ومضينا نقترب

من بابها الكبير .

أمام المدخل ، على ضوء المشاعل ، وقف مدير الجمرك ، وكان على ما بدا من العسكريين بخوذتـه ودرعه وسيفه ووزرته القصيرة . قال بصوت قوى أسمع القافلة كلها :

ــ أهلا بكم فى الحيرة عاصمة دار الحيرة ، ستجدون رجال الشرطة فى كل مكان فتسألونهم عما تريدون ، وتتبعون إرشاداتهم بدقة تجعل من رحلتكم ذكرى طيبة لا يشوبها ما ينغص .

فقلت فى نفسى « إنه ترحيب وإنذار » . واخترقنا الباب ثم انقسمنا فذهب التجار إلى فندق السوق ، ومضى بى دليل إلى فندق الغرباء . اخترقنا ظلاما شديدا ، تسبح فيه مشاعل رجال الشرطة هنا وهناك كالنجوم . واقتربنا من الفندق فرأينا مدخله الكبير على ضوء المشاعل ، وشع نور من بعض النوافذ . إنه بناء كبير مشيد بالأحجار ولكنه مكون من دور واحد . وسرعان ما ذهبت وراء حقائبى المحمولة إلى حجرتى . حجرة متوسطة ، بها فراش يعلو عن الأرض ذراعا ، ذو غطاء أرجوانى يناسب جو الخريف المعتدل ، وبه صوان ملابس ، وأريكة صغيرة ، وثمة شمعدان فى كوة فى الوسط تشتعل به شمعة غليظة متوسطة الطول ، أما الأرض فمغطاة بحصيرة مزركشة . توجد حضارة ولا شك ، وشتان ما بينها وبين المشرق . وما كدت أخلع ملابس السفر وألبس قميص النوم حتى جاءنى رجل متوسط القامة أسمر فى الخمسين يرفل فى

عباءة خفيفة . قال :

ـ هام .. صاحب الفندق ..

فصافحته قائلا :

ـ قنديل محمد العنابى ، رحالة ..

ـ أتريد عشاء ؟

ـ تناولته فى الطريق .

فابتسم وقال :

ـ الليلة بياتا وطعاما بدينار والدفع مقدما ..

قدرت أن إقامتى ستمتد عشرة أيام فأديت إليه عشرة دنانير فسألنى :

ـ من أى البلاد ؟

ـ دار الإسلام .

فقال محذرا :

ـ لا يمارس فى الحيرة إلا دين الحيرة .

فذكرنى بمأساتى ولكنى سألته :

ـ وما دين الحيرة يا سيد هام ؟

ـ إلٰهنا هو الملك .

وحيانى وانصرف . نفخت الشمعة فأطفأتها وآويت إلى الفراش وأنا أقول لنفسى ، الملك بعد القمر ، يا له من ضلال . ولكن رويدك ،

ألا يتصرف الوالى فى وطنك كأنه إلٰه ؟! استمتع بالرقاد بعد متاعب السفر ، ولذ بالنوم من متاعب الحياة كلها . استيقظت مبكرا بخلاف ظنى وفى الحال أدركت أن جلبة شديدة تهب من الطريق هى التى انتزعتنى من نومى . وفتحت نافذة فرأيت فى ضوء البكور جيشا لجبا ، فرسانا ورجالة ، يتقدم على دقات طبل نحو باب المدينة . جعلت أشاهد وأتساءل . ولما خلا الطريق طلبت الفطور فجاءتنى صينية من نحاس عليها طعام مكون من حليب وزبد وجبن وعيش وعنقود من العنب . هممت أن أسأل الخادم عن مسيرة الجيش ولكن الحذر أمسكنى . وارتديت ملابسى للخروج فوجدت مدخل الفندق مكتظا بالناس وهم يتحاورون :

— إنها الحرب كما توقع كثيرون .

— ضد المشرق ولا شك ..

— لتحرير شعب من خمسة من الطغاة ..

— سيكون تاريخا جديدا للمشرق تحت حكم إلٰه عادل ..

انقبض صدرى وطارت أفكارى لتحوم حول عروسة وأبنائها . كيف يكون مصيرهم ؟. ليست الرغبة فى تحرير أهل المشرق هى ما دفعت إلى الحرب ولكنه الطمع فى المراعى وكنوز السادة الخمسة . وسوف يقع قهر شديد لتحويل الناس من عبادة القمر لعبادة الملك . سوف تزهق أرواح وتهتك أعراض وتتشرد الألوف . ألا يحدث ذلك

فى حروب تنشب بين أناس على دين واحد يدعو للتوحيد والأخوة ؟!.

وجاءنى هام صاحب الفندق قبل أن أغادره وقال لى :

— تقرر رفع الأجرة نصف دينار لمواجهة أعباء الحرب .

فأديتها صاغرا فقال باسما :

— ليس كثيرا فى سبيل تحرير العبيد !

فلعنته فى سرى كما لعنت الشعارات الكاذبة جميعا . ومن شدة قلقى ذهبت إلى فندق السوق فوجدت رفاق التجار مجتمعين فى البهو . جالستهم متابعا أحاديثهم :

— أيام الحرب غير مأمونة ..

— قد تضيع أموالنا لآخر درهم .

— ولكن الأسعار سترتفع أيضا .

— والمكوس الإضافية ؟

وقال صاحب القافلة :

— الحروب لا تزول أبدا ، ونفعها للتجارة أكثر من ضررها ، ولا أظن أن هذه الحرب ستطول فالحيرة أقوى من المشرق بما لا يقاس ، فى أقل من أسبوع سينتهى كل شىء .. تركزت أفكارى على أسرتى المفقودة . قررت البقاء فى الحيرة قريبا من المشرق . وراودنى أمل جديد أنه بعد ضم المشرق إلى الحيرة أستطيع أن أسافر إلى المشرق لعل الله يجمعنى بأسرتى رحمة منه وكرما . ولعلى أستطيع أن

أتزوج منها وأمضى بها معى فى رحلتى إلى وطن جديد ودين جديد .
طابت حياتى بهذا الأمل الجديد فانشرح صدرى للتجول والرحلة ، واكتشاف الحيرة عاصمة دار الحيرة . سرت بلا توقف وبلا كلل .. أنظر وأسمع وأسجل فى الذاكرة . إنها مدينة كإحدى مدن بلادى . فيها ميادين وحدائق ، وشوارع وحوارى ، وعمائر وبيوت ومدارس ومستشفيات ، عامرة بالخلق ، وفى كل موقع شرطى ، وملاهى الرقص والغناء موفورة . وسوقها كبيرة مترامية متعددة الحوانيت ، وبها سلع من الحيرة ومن جميع البلدان . وبعث فى جو الخريف المعتدل نشاطا غير محدود فتواصلت أيام الاكتشاف والمشاهدة والتسجيل . ومن آن لآن أزور فندق السوق فألقى الرفاق أو أجالس صاحب القافلة ، وقد قال لى مرة :

ــ جو الحيرة معتدل بصفة عامة ، صيفه محتمل ، وشتاؤه مقبول ..

ولما حدثته عن كثرة رجال الشرطة قال لى :

ــ الأمن مستتب ولكنهم يحمون الدولة ..

الحق أنى طفت بأحياء الأغنياء وهى جميلة هادئة ، قصورها متاحف ، وسكانها يتحركون فى هوادج ، كما زرت أحياء الفقراء بأكواخها وخرائبها ومناخها الكئيب وأناسها التعساء وقلت فى ذلك لصاحب القافلة :

ــ يزعمون أن الحرب قامت من أجل تحرير العبيد فى المشرق ، هلا

حرروا عبيد الحيرة ؟

فتساءل الرجل هامسا :

ـ وماذا تقول فى بلادنا ، بلاد الوحى ؟!

فقلت بحزن :

ـ ما من سيئة عثرت بها فى رحلتى إلا وذكرتنى ببلادى الحزينة ..

فقال لى الرجل وهو يمضى عنى :

ـ عليك أن تشاهد قصر الملك الإلٰه ..

ولم يغب عنى ذلك ، وقد وجدته قائما منيفا شامخا فى عزلة وسط فراغ مسور بالنخيل والحراس . إنه مثل قصر الوالى فى وطنى أو أفخم . وثكنات الحرس تقوم فى جانب ، ومعبد الملك الإلٰه يقوم فى جانب آخر . وشد بصرى حقل من الأعمدة مسور بسياج من حديد فاقتربت منه حتى رأيت أن رءوسا آدمية منفصلة عن أجسادها تتدلى من هامات الأعمدة . ارتعدت لهول المنظر . ولا أنكر أننى رأيت صورة مصغرة منه فى صباى فى وطنى . إنهم يعرضون الرءوس للزجر والتأديب والعظة . واقتربت من حارس وسألته :

ـ هل يستطيع غريب أن يعرف جريمة هؤلاء القتلى ؟

فأجابنى بجفاء :

ـ التمرد على الملك الإلٰه !

فذهبت مسديا إليه شكرى ، وأنا على يقين من أنهم شهداء للعدل

والحرية قياسا على ما يقع عادة فى بلاد الوحى . إنه عالم غريب حافل بالجنون ، وستكون معجزة حقا إذا وجدت الدواء الشافى فى دار الجبل . وسألت هام صاحب الفندق مساء :

ــ ماذا فى دار الحيرة من مواقع تستحق المشاهدة خارج العاصمة ؟

فقال الرجل بثقة :

ــ عدا العاصمة لا يوجد إلا الريف وليس به ما يسر الرحالة ..

وعكفت على تدوين المشاهد فأراحنى ذلك من التفكير فى عروسة وأبنائها . وسهرت ليلة فى ملهى فهالتنى عربدة السكارى وفسق الفاسقين مما يعف قلمى عن الخوض فيه . وعند مرورى بفندق السوق قال لى صاحب القافلة :

ــ نحن سائرون فجر الغد فهل تجىء معنا ؟

فأجبته واجما :

ــ كلا ، إنى باق بعض الوقت ..

جذبتنى عروسة للبقاء ولكن آلمنى ما ينتظرنى من وحدة مخيفة . واستيقظت عند الفجر فتخيلت القافلة وهى تتحرك على صوت الحادى . نداء كالقدر يدعونى للبقاء وأمل فى السعادة لا يريد أن يخبو . ولم أشأ أن أبدد وقتى سدى فنشطت لتحصيل المعلومات التى لا تجود بها المشاهدة . ولم أجد عند صاحب الفندق فراغا للحديث كالذى وجدته فى المشرق ، فسألته أن يدلنى على حكيم هذه الدار إن سمح لى

بلقاء . قال هام :

ـــ فى وسعى أن أعد لك لقاء كما حدث مع غيرك ..

وذهبت فى الميعاد عصرا إلى بيت الحكيم ديزنج . بيت جميل تكتنفه حديقة ملأى بالأزهار وأشجار الفاكهة . استقبلنى بابتسامة لطيفة وأجلسنى على أريكة إلى جانبه . كان فى الخمسين قوى الجسم واضح القسمات تتواءم قلنسوته البيضاء مع عباءته البيضاء . طلب منى أن أقدم نفسى ففعلت ذاكرا اسمى ومهمتى ووطنى . قال :

ـــ بلادكم عظيمة أيضا ، خبرنى عما أعجبك فى دارنا ؟

فقلت مداريا ذاتى :

ـــ أشياء لا تعد ولا تحصى .. حضارة وجمال . قوة ونظام ..

فسأل فى مباهاة :

ـــ وما رأيك فى حرب نعلنها مضحين بأبنائنا من أجل تحرير دار غزية ؟

ـــ هذا ما لم تسمع بمثله من قبل ..

فقال بيقين :

ـــ نحن نقدم للناس مثالا للوطن السعيد الشريف ..

فأحنيت رأسى موافقا فقال :

ـــ لعلك تسأل عن سر ذلك كله ؟ لقد دلوك علىّ باعتبارى حكيم هذا البلد ، والحق أننى ما أنا إلا تلميذ ، مولانا هو الحكيم وهو الإلـٰه

وهو مصدر كل حكمة وخير ، إنه يجلس على العرش ، ثم ينعزل فى جناح صائما حتى يشع منه النور فيعرف أن الإلـٰه قد حل فيه ، وأنه صار الإلـٰه المعبود ، عند ذاك يمارس عمله ، يرى كل شيء بعين الإلـٰه ، فنتلقى منه الحكمة الأبدية فى كل شيء ، ولا نطالب بعد ذلك إلا بالإيمان والطاعة ..

تابعته باهتمام وأنا أستغفر ربى فى سرى ، أما هو فواصل حديثه قائلا :

ـــ فهو ينشيء الجيش ويختار له قواده فيكون جيش النصر ، ويعين من أسرته المقدسة الحكام ، وينتخب من الصفوة قادة للعمل فى الأرض والمصانع ، أما بقية الناس فلا قداسة بهم ، ولا مواهب ، يعملون فى الأشغال اليدوية ، ونوفر لهم اللقمة ، يلى هؤلاء الحيوانات ، ويلى الحيوانات النبات والجماد ، نظام محكم كامل يضع كل فرد فى موضعه محققا بذلك العدل الأكمل ..

وسكت مليا وهو ينظر إلىّ ثم قال :

ـــ لذلك فنحن لنا أكثر من فلسفة ، نخاطب الصفوة بما يقوى فى نفوسهم القوة والهيمنة والنمو ، ونستعين على ذلك بتوفير التعليم لهم والطب ، أما الآخرون فنقوى بهم مواهب الطاعة والانقياد والقناعة ، ونهديهم إلى الكنز الروحى المدفون فى أعماق كل منهم ، والذى يهيىء لهم بالصبر والاجتهاد السلام ، بهذه الفلسفة المزدوجة تتحقق السعادة

للجميع ، كل بحسب استعداده وما أعد له ، فنحن أسعد أهل الأرض طرا ..

تفكرت فيما يقال وفيما لا يقال ثم سألته :

ـــ من يملك الأرض والمصانع ؟

ـــ الإلـٰه ، هو الخالق وهو المالك ..

ـــ وعلاقة الصفوة بها ؟

ـــ هم ملاكها بالنيابة ، والريع يقسم مناصفة بينهم وبين الإلـٰه .

فوثبت خطوة جديدة متسائلا :

ـــ كيف تنفق أموال الإلـٰه ؟

فضحك لأول مرة وقال :

ـــ وهل يسأل إلـٰه عما يفعل ؟!

ـــ إذن من ينفق على المدارس والمستشفيات ؟

ـــ الصفوة باعتبارها وقفا عليهم وعلى أبنائهم .

ثم متسائلا فى زهو :

ـــ أليس هذا هو الكمال نفسه ؟!

فقلت مداريا ما فى نفسى :

ـــ هو ما يقال عادة عن دار الجبل .

فهتف بقوة :

ـــ دار الحيرة هى دار الجبل .

فقلت بوضوح :

ــ صدقت أيها الحكيم ديزنج !

فقال بثقة ويقين :

ــ أن تعيش بإرشاد الإلٰه وتوجيه هو أقصى ما يطمح إليه الإنسان من عدل وسعادة .

فقلت متسللا :

ــ لذلك يشتد عجبى من أولئك المتمردين الذين رأيت رءوسهم المعلقة !

فهتف بغضب :

ــ لا تخلو طبيعة البشر من انحراف وسوء ولكنهم قلة على أى حال .

وفى نهاية المقابلة قدم لى تفاحة وقدحا من حليب فرجعت إلى وحدتى فى الفندق متفكرا مغتما . وتذكرت أستاذى الشيخ مغاغة الجبيلى فسألته على البعد :

ــ أيهما أسوأ يا مولاى ، من يدعى الألوهية عن جهل أم من يطوع القرآن لخدمة أغراضه الشخصية ؟!

وكابدت الملالة أياما ثم بلغتنى أنباء انتشرت مع نسائم الخريف تؤكد أن جيش الحيرة قد انتصر وحقق أهدافه ، وأن دار المشرق أصبحت الإقليم الجنوبى لدار الحيرة . وتدفق الفقراء إلى الطرقات يعلنون فرحتهم بالنصر كأنهم هم الذين سيجنون ثمرته . وتساءلت فى قلق بالغ :

— ترى كيف أنت يا عروسة ؟.. وكيف أنتم يا أبنائى ؟!

وبكرت يوم عودة الجيش المنتصر فاتخذت موقفى غير بعيد من الفندق ، فى الطريق الملكى الممتد من مدخل الحيرة حتى سراى الملك . كان الزحام شديدا على الجانبين حتى خيل إلى أنه لم يبق من الأهالى أحد فى بيته أو مكان عمله . وعند الضحا ترامت إلينا دقات الطبول ، وتقدم الموكب فرسان يحملون فى سنان رماحهم خمسة رءوس هى رءوس السادة الذين كانوا يملكون مدن المشرق . هكذا رأيت لأول مرة السيد الذى ذهبت يوما إلى حاجبه لمساومته على شراء عروسة . وتبع ذلك طابور طويل من أسرى الحرب يسيرون عرايا مكبلين الأيدى بين صفين من الحراس . وتتابعت فرق الجيش من فرسان ورجالة فى جو عاصف بالهتاف الحار . يوم نصر وأفراح . أما المآسى الدامية التى خلفها وراءه فلا يعلمها إلا الله . حياة بشرية غريبة يمكن تلخيصها فى كلمتين ، دماء وزغاريد . وفى ذيل الجيش سارت السبايا من النساء بين ذراعين من الحراس . خفق قلبى خفقة شديدة وتمثلت عروسة لعينى كما رأيتها أول مرة ، بل كما رأيتها وهى تقود أباها فى الحارة التى شهدت مولدى !. وزاغ بصرى بين الوجوه المنكسرة والأجساد العارية . وصدقت لهفتى فاستقرت عيناى على وجه عروسة !. هى عروسة بجسدها الممشوق ووجهها المليح التعيس تتقدم ذاهلة يائسة ضائعة . اشتعل بى نشاط مقتحم . التصق بصرى بها . اندفعت تابعا لطابور السبايا غير مبال بمن

أرتطم بهم من الواقفين ولا باحتجاجاتهم ولا باتهاماتهم الباطلة بأننى أجرى وراء أجساد النساء العارية . ناديتها مرارا فتلاشى صوتى فى هدير الأصوات المتصاعدة . لم أفلح فى لفت نظرها أو تنبيهها . حتى حجزنى عنها الحراس الذين منعوا الجماهير من دخول ميدان القصر المخصص للصفوة من أهل الحيرة . هكذا تجلت واختفت كالشهاب تاركة إياى للجنون والقنوط . وأين الأبناء ؟. هل يعيشون الآن فى كتف جدهم ؟. وفضفضت ضيقى بالإفضاء بسرى إلى هام صاحب الفندق فقال لى :

— قد تعرض للبيع فى سوق الجوارى !

فقلت فى ارتياب :

— ولكنها حرب تحرير ؟!

فقال :

— إلا السبايا فلهن معاملة خاصة !

باركت هذا النفاق باعتباره ثقبا للأمل فى سماء سوداء . وتشبثت أكثر بالبقاء ، وجعلت أطوف بسوق الجوارى كل يوم ، وحلمى بجمع الشمل يتحدى اليأس ، وذات مساء تلقانى صاحب الفندق بابتسامة مشجعة وقال :

— غدا ستعرض السبايا للبيع ..

نمت ليلتها نوما متقطعا . وذهبت إلى السوق فكنت أول الذاهبين .

ولما عرضت عروسة اقتحمت المزاد بإصرار . تبدت فى ثوب أخضر لأول مرة فى حياتها ، وتجلى جمالها ، رغم الحزن الشديد . وكانت تنظر فى داخل ذاتها المهيضة فلم ترنى ولم تتابع ما يجرى . ولم يبق معى فى المزايدة إلا شخص سمعت من يهمس بأنه مندوب الحكيم ديزنج . ورسا المزاد على بثلاثين دينارا ، فلما دفعت إلىّ عرفتنى فارتمت بين يدى وهى تنشج حتى أثارت دهشة جميع من بالسوق . ولم تكن ثمة فرصة لتبادل حديث فمضيت بها خارجه ، وفى الطريق ما ملكت أن سألتها :

— كيف الأبناء يا عروسة ؟

ولكنى كففت عن ملاحقتها لشدة انفعالها حتى خلوت إليها فى حجرتى بالفندق . هناك عانقتها بحرارة ، وتركتها على الأريكة حتى تثوب لنفسها ، ثم قلت :

— إنى حزين لما قاسيت من عناء .

فقالت بصوت غريب :

— لكنك لم تر شيئا ..

— حدثينى يا عروسة فإننى أوشك أن أجن ..

فقالت ودموعها تسيل :

— عن أى شىء ؟، إنه الهول ، اقتحموا الخيمة ، قتلوا أبى بلا سبب ، قبضوا علىّ ، أين الأولاد ؟.. لا أدرى ، قتلوا ؟.. تاهوا ؟!.. دع الجنون لى أنا ..

فقلت مكابرا مخاوفى :

ــ لماذا يقتلون الصغار ؟.. إنهم فى مكان ما .. سنعثر عليهم ..

ــ إنهم وحوش ، لماذا يمثلون بنا بعد الانتصار على جيشنا ؟!..

لكنهم وحوش . كانت ليلة بدر والإلٰه حاضرا يرى ويسمع ولا يفعل شيئا !

فقلت مواسيا :

ــ على أى حال اجتمع شملنا ، وقلبى يحدثنى بأن الرحمة آتية ..

فهتفت :

ــ لا توجد رحمة ، ولن أرى أبنائى ..

فقلت برجاء :

ــ عروسة ، الحياة شرها كثير ، ولكن خيرها وفير أيضا ..

ــ لا أصدق ..

ــ سترين .. سنرحل مع أول قافلة إلى المشرق للبحث عن الأبناء ..

ــ متى تقوم ؟

ــ مداها عشرة أيام ..

رنت إلى لا شىء فى حزن عميق ففاض قلبى بالحنين كعين متفجرة . وتسلينا فى فراغنا الطويل بالتجول فى المدينة والمشاهدة واجترار الأمانى والاستعداد للسفر . غير أن هام صاحب الفندق كان يدخر لى مفاجأة فدعانى إلى حجرته ونظر إلى بشىء من الحرج وقال :

ــ لدى أخبار غير سارة ..

فتساءلت ساخرا ..

ــ أكثر مما لدى ؟

فقال بهدوء :

ــ الحكيم ديزنج يرغب فى حوز فتاتك .

فدهشت وقلت بحدة :

ــ أرجو أن تعتبرها زوجتى ..

ــ سيؤدى إليك ثمنها ..

ــ إنها ليست سلعة ..

فقال لى بنبرة ناصحة :

ــ ديزنج رجل قوى وهو من المقربين إلى الإلٰه ..

فقلت وأنا أدارى انزعاجى :

ــ الغرباء فى بلادكم آمنون .

فقال بحرارة :

ــ رأيى فى هذه المسألة واحد ، لا يتغير ..

وحرت فى أمرى ، هل أنقل الحديث إلى عروسة ؟. هل أضيف إلى أحزانها حزنا جديدا ؟. الحق أنى أشفقت من تكدير صفو الحلم الباقى لها . وتساءلت هل يستطيع ديزنج أن ينتزع عروسة منى بقوة نفوذه ؟. وتذكرت حاجب الوالى الذى سرق منى حليمة فى وطنى ، ولكنى لم

أطمئن إلى رأى مستقر . وطوال الوقت شعرت بخطر يطاردنى ، وبأن سعادتى لا تقف على قدمين ، ولا أجنحة لها . وفى صباح اليوم السابق ليوم الرحيل بأربعة أيام استدعانى خادم لمقابلة هام فى حجرته . وهناك وجدت ضابط شرطة فقدمنى هام إليه ، وإذا به يقول :

ـــ ستذهب معى لمقابلة رئيس شرطة العاصمة .

سألته عن السبب فادعى الجهل به . طلبت أن أخبر فتاتى فقال الضابط :

ـــ سينيب عنك هام فى ذلك ..

وذهبنا إلى إدارة الشرطة العامة بالشارع الملكى فمثلت أمام المدير الذى جلس على أريكة بين بعض معاونيه . نظر إلى نظرة لم أرتح لها وسألنى :

ـــ أنت قنديل محمد العنابى الرحالة ؟

فأجبت بالإيجاب ، فقال :

ـــ إنك متهم بالسخرية من دين هذه الدار التى تستضيفك !

فقلت بقوة ووضوح :

ـــ تهمة لا أساس لها من الصحة ..

فقال ببرود :

ـــ يوجد شهود .

فهتفت :

ــ لا يمكن أن يشهد بذلك ذو ضمير .

فقال باستياء :

ــ لا تطعن الأبرياء ولتدع ذلك لتقدير القاضى .

وألقى القبض على . وفى صباح اليوم التالى قدمت إلى المحكمة . أعلنت التهمة فرفضتها . وجاء شهود خمسة على رأسهم هام صاحب الفندق فأدلوا بشهادة واحدة ــ كأنها قطعة محفوظات ــ بعد أن أدوا اليمين . وأصدرت المحكمة حكمها بسجنى مدى الحياة ، مع مصادرة أموالى وما أملك ، وبذلك دخلت عروسة فى المصادرة . حدث ذلك كله ما بين يوم وليلة . ذقت طعم اليأس المرير وعرفت أنه حقيقة تقع لا حكاية تروى . ضاعت عروسة ، تلاشت الرحلة ، تبدد حلم دار الجبل ، اختفى وجودى نفسه من هذه الدنيا . وكان السجن عند مشارف المدينة فى منطقة صحراوية . وهو عبارة عن مكان متسع تحت الأرض ، ذى منافذ ضيقة فى السقف ، جدرانه من الأحجار الكبيرة ، وأرضه رملية . ولكل سجين سروال لا غير وفروة ، يكتنفه جو خانق ذو رائحة كدرة ، نصف مظلم كأنه فجر لا تشرق فيه شمس . نظرت حولى وقلت فى ذهول : « سأبقى هنا حتى آخر يوم فى حياتى ! ». وتطلع إلىّ الرفاق وسألونى عن جريمتى . سألونى وسألت . أدركت أن ما يجمعنا هى جرائم العقائد والسياسة ، وأنى واجد فى ذلك شيئا من العزاء إن أمكن لمثلى أن يتعزى . إنهم مجموعة نادرة من الأحرار الذين

تضيق بهم الأجواء الفاسدة . سمعوا حكايتى فعلق أحدهم عليها قائلا :

— حتى الغرباء ..

ولم يكن أحد منهم قد كفر بالإله فهذه جريمة عقوبتها ضرب العنق ، ولكن نقلت عنهم تساؤلات ناقدة لبعض التصرفات الشاذة التى تمس العدالة أو حرية الإنسان . ورأيت بينهم عجوزا نيف على الثمانين ، قضى منها فى السجن خمسين عاما بدأها على عهد الملك السابق سلف الملك الحالى . رأيته قد فقد حواسه وذاكرته فهو لا يدرى أين هو ، ولا ماذا جاء به ، وينطرح على فروته جسدا ضئيلا بلا روح . قال صوت :

— إنه أجدرنا بالتهنئة .

فصدقت على قوله بلا تردد . وحامت أفكارنا حول وضع الإنسان فى هذا العالم .

— لا يوجد بلد سعيد .

— الشكوى هى لغة الإنسان المشتركة .

— نحن الحائرون بين الواقع القبيح والحلم الذى لا يتحقق .

— لكن ثمة بلدان أفضل ..

— هى نفسها لم تعرف الرضى بعد .

— ودار الجبل ؟

وثب قلبى فى صدرى حال استقبال الاسم الساحر . تذكرت

بحسرة هدفى الضائع . وسألت :

ـــ ماذا تعرف عنها ؟

ـــ ليس أكثر مما يقال عادة من أنها وطن الكمال ..

فسألت باهتمام :

ـــ ألم تقرأ عنها كتابا أو قابلت من زوارها أحدا ؟

ـــ كلا .. ليس إلا ما يقال ..

ـــ ومنذ يحقق الحلم ؟

ـــ الإنسان ، لا شيء سوى الإنسان ..

ومللت الكلام . مللت مكابدة الحسرات . مللت أكاذيب الأمل . وقلت لنفسى :

ـــ لا دنيا لى إلا هذا السجن الأبدى .

لم أجد فى عقلانية أستاذى الشيخ مغاغة أى جدوى فى سجنى الدائم ولكنى وجدت فى قدرية أمى الساذجة راحة اليأس ، كأنها فلسفة خلقت خاصة للسجن الأبدى . قلت مستسلما : « لتكن مشيئة الله .. فكل ما جاءنى من عنده ». سلمت نفسى لقدرى . دفنت آمالى . شيعت للفناء ماضى وحاضرى ومستقبلى . الأمل الوحيد الباقى لسجين مثلى هو قتل الأمل ، والتكيف مع القبر الذى ازدردنى ، والزواج من اليأس المهيمن المترامى الراسخ . أطرد أشباح الوطن والأم وعروسة والأبناء ودار الجبل . وآلف الرائحة الكدرة فلا رائحة فى

الوجود غيرها ، والضوء الخابى نصف المظلم فلا ضوء فى الكون غيره ، والهوام المنتشرة فهى مالكة المكان وصاحبة الحق الأول فيه ، والألم والملل فهما الرفيقان الدائمان . ورحت أغرق فى أعماق لا نهائية . ويسود الصمت ويتحول العذاب إلى عادة وأنهل من اليأس قوة عجيبة على الاحتمال والصبر . ويخترق جدار الصمت صوت يقول :

ـــ يحكى عن سجين قديم أنه أنشأ فى ذاته قوة خارقة حتى استطاع أن يخترق جدار السجن كأنه صوت وطار فى الهواء إلى ماوراء الحدود !

فيتلقى صبرى هذا الهذيان بطيبة . وبعد يوم أو عام قال صوت آخر :

ـــ قد تقوم الحرب بين الحيرة والحلبة فنصعد مرة أخرى إلى سطح الأرض ..

فأعفو عمن ذكرنى بسطح الأرض وأتساءل متى أفقد الحواس مثل العجوز السعيد !. وهبطت فى الأعماق درجات فى إثر درجات فضاع الزمن فيما ضاع من أسباب الحياة ، واختفى التاريخ . وجهلت الساعة واليوم والشهر والعام ، توارت المعالم ، وبات عمرى لغزا ، وجعلت أكبر بلا تحديد ولا حساب ، ولا مرآة أرى فيها نفسى إلا الرفاق فأتخيل ما صرت إليه من بشاعة وقذارة ، فلم ينعم بالسعادة فى دنيانا المظلمة إلا الهوام والحشرات . لا شك أن الأجيال والعصور والدهور تتعاقب وأننا نتذوق طعم الفناء بجلاله الأبدى . هكذا .. هكذا .. هكذا ..

حتى زج إلينا بقادم جديد التففنا حوله كالهوام ، ننظر باستغراب إلى القادم من العالم الآخر . رغم كبره وتعاسته خيل إلى أننى لا أراه لأول مرة . وكان العجوز قد مات منذ زمن لا ندريه فحل محله . وراح ينظر فى وجوهنا ويبكى . وقال قائل :

ــ لا تبك يا رجل فالدموع تؤذى الهوام ..

وسأله سائل:

ــ من أنت ؟

فأجاب برثاء :

ــ أنا الحكيم ديزنج .

فخرجت من غيبوبتى الأبدية وصحت بصوت غريب :

ــ ديزنج .. ديزنج .. هيهات أن أنساك ..

فسألنى :

ــ من أنت ؟!

فهتفت وقد وقعت فى الزمن :

ــ إنى ضحيتك !

فقال بضراعة :

ــ أصبحنا فى البلوى سواء .

فصرخت :

ــ كلا لسنا سواء .

فهتف :

ـــ انقلبت الدنيا ، ثار قائد الجيش على الملك وقتله وأحل نفسه محله .

فدبت الحياة فى الرفاق وانبعثت منهم انتفاضة حماسة ، وتساءل أحدهم :

ـــ ماذا يحدث فوق سطح الأرض ؟

فقال ديزنج :

ـــ قتل رجال الملك ، أما أنا فقضى علىّ بالسجن مدى الحياة ..

امتلأت العيدان الخاوية بأمل جديد وتعالى الهتاف للإلٰه الجديد أما أنا فسألته بوحشية :

ـــ ألا تتذكرنى ؟

فسألنى بخوف :

ـــ من أنت ؟

فهتفت :

ـــ أنا صاحب عروسة ، تذكرتنى الآن ؟!

فتراجع فى حذر ونكس رأسه . سألته :

ـــ ماذا حصل لها يا وغد ؟!

قال بذل وانكسار :

ـــ حاولنا الهرب فى القافلة الذاهبة إلى دار الحلبة ولكنهم قبضوا علىّ

أما هى فرحلت إلى الحلبة ..

ـــ ماذا عن أبنائها ؟

ـــ سافرنا معا إلى المشرق للبحث عنهم ولكننا لم نعثر لهم على أثر ، حدث ذلك منذ عهد طويل ..

لكنى نسيت أحزانى فيما نسيت أما غضبى فكان يتصاعد . وصرخت فيه :

ـــ ما أنت بحكيم ولكنك وغد لئيم ، لم تتورع عن تلفيق تهمة لى لتسرق امرأتى ، والقتل دون ما تستحق من عقاب ..

وهبط على صوت الحارس من منفذ فى السقف يأمرنى بالابتعاد عنه فرجعت إلى موضعى وجسمى الضعيف ينوء بدفقة الحياة المباغتة التى اكتسحته . جلست على فروتى مسند الظهر إلى الجدار مادا ساقى ، متلقيا من جديد تيار الحياة والتاريخ . وددت أن أسأله عن المدة التى قضيتها فى السجن ولكنى كرهت أن أواصله بحديث . غير أنه نظر نحوى وقال بحزن :

ـــ إنى آسف ونادم .

فقلت بحنق :

ـــ مثلك غير جدير بالندم .

فقال بنفس النبرة :

ـــ نلت جزائى بمعاشرة امرأة لم تكف عن كراهتى قط ..

ثم وكأنه يحدث نفسه :

ـــ عشرون عاما لم تغير من قلبها !

عشرون عاما ! يا لضياع العمر . جاءنى الجواب قاسيا قاطعا كنصل الخنجر . ها هو الرحالة ينحدر إلى منتصف الحلقة الخامسة . وسيموت ذات يوم فى هذا القبر وما حقق هدفا ولا حظى بمتعة ولا أدى واجبا . وضاعف من وكسى تواجد هذا الوغد معى فى قبرى، ليذكرنى بعثراتى وسوء حظى وحيدى عن هدفى . أما الرفاق فاشتعلت أنفسهم بأمل جديد ، وتوقعوا جميعا أن يصدر عفو شامل عنهم بين ساعة وأخرى . ولم يخب أملهم فجاءنا ذات يوم مدير السجن وقال :

ـــ اقتضت إرادة الإلـٰه الجديد إصدار عفو شامل عن ضحايا الملك المخلوع الغادر .

ووقفنا جميعا نهتف بالدعاء والتأييد . وغادرنا السجن فلم يبق إلا ديزنج . وآذانا ضوء النهار فى الخارج لاعتيادنا الظلام فحجبنا أعيننا بأكفنا . ومضى بى ضابط إلى مركز الغرباء . وقال لى المدير :

ـــ نحن آسفون لما حل بك من ظلم يتنافى مع مبادئ وقوانين دار الحيرة ، وقد تقرر أن يرد إليك مالك ومتاعك عدا الجارية التى غادرت البلاد .

وذهبت من فورى إلى حمام عمومى فحلقوا لى شعر رأسى وجسدى ، واغتسلت بالماء الدافئ ، ودهنت رأسى وجسمى بزيت

الباشام لاستئصال الهوام والحشرات . وقصدت فندق الغرباء وأنا أتوقع لقاء مثيرا بينى وبين هام غير أنه تبين لى أن الرجل مات وحل محله آخر يدعى تاد هو ابن أخيه وزوج ابنته . وكان اللقاء المثير حقا لا بينى وبين هام ولكن بينى وبين نفسى فى المرآة . رأيت قنديل الكهل المبعوث من قبره بعد دفن استمر عشرين عاما . كهل حليق الرأس والذقن . ناحل ذابل غائر العينين ذو لون كئيب ونظرة ميتة ووجنتين بارزتين . وفى الحال قررت أن أبقى فى الحيرة حتى أسترد شيئا من الصحة والعافية والتوازن الداخلى . ورحت أمشى لا لأرى جديدا ولكن لأدرب قدمى على المشى . وجعلت أتساءل عما يجدر بى عمله ، هل أرجع إلى وطنى قانعا من الغنيمة بالإياب ، أو أواصل الرحلة والاستطلاع ودق أبواب المصير ؟. وكرهت العودة إلى الوطن على هذه الحال من الجدب والخيبة . وحدثنى قلبى بأننى فى وطنى معدود من الأموات لا أحد ينتظرنى أو يهمه مرجعى ، هذا إذا لم يكن الموت قد أدركهم فاستأصل الجذور وبذر فى أصولها الغربة والوحشة . كلا لن أرجع . لن ألتفت إلى الوراء . بدأت رحالة ، سأظل رحالة ، وفى طريق الرحلة أسير . إنه قرار وقدر ، خيال وفعل ، بداية ونهاية . فإلى دار الحلبة وما بعدها حتى دار الجبل . ترى كيف تتبدين اليوم يا عروسة وأنت بنت أربعين ؟!

دار الحلبة

كالأيام الخالية تحركت القافلة فى تؤدة وجلال . انغمسنا فى ظلمة الفجر الرفيقة لا لأنهل من الشعر هذه المرة ولكن لأتلقى لطمات من ذكريات السجن ، وحسرات من العمر الضائع . ورأيت أشباح الرفاق فرأيت جيلا جديدا من التجار ، فما زال النشاط يتمادى والمال يتكاثر والجاه يصيد المغامرين ، أما الحالمون فالحيرة لهم . وتتابعت علىّ إحباطاتى الماضية ، ساعة غادرت الوطن ناعيا حليمة ، ساعة طردت من المشرق باكيا عروسة ، وساعة أودع الحيرة نادبا السعادة والشباب . وانتبهت إلى الشرق فرأيته يموج بماء الورد الأحمر وانداح وجه الشمس كدأبه طيلة عشرين عاما . وتجلت الصحراء لا نهائية وتفشى الصيف . وتواصل السير ما يقارب الشهر ، وفى إحدى محطات الراحة سألت صاحب القافلة عن القانى بن حمديس فقال لى :

ـــ البقية فى حياتك .

وسألت عن الشيخ مغاغة الجبيلى ولكنه لم يسمع به ، لا هو

ولا أحد من تجار القافلة . وعسكرنا فى الشامة استعدادا لدخول الحلبة . كانت لحيتى قد نبتت وكذلك شعر رأسى وأخذ دم الصحة يجرى من جديد . وواصلنا السير حتى رأينا السور العظيم تحت ضوء تربيع القمر . وتقدم إلينا مدير الجمرك بسترته الخفيفة المناسبة لجو الصيف المعتدل وقال بصوت مرح :

ــ أهلا بكم فى الحلبة عاصمة دار الحلبة ، دار الحرية ..

دهشت لسماع الكلمة الملعونة فى كل مكان ، ودهشت أيضا لخلو كلامه من التحذير المعلن أو الخفى .

وقلت لصاحب القافلة :

ــ أول دار ترحب بالقادم بلا نذير .

فضحك قائلا :

ــ إنها دار الحرية ولكن الحرص أمان الغريب ..

ومضوابى وحدى إلى فندق الضيوف . وفى الطريق ــ تحت ضوء القمر ــ تناثرت معالم من المدينة فى عظمة موحية بمنظر جديد ، إلى كثرة من الهوادج الذاهبة والآتية على ضوء المشاعل رغم اقترابنا من الهزيع الأخير من الليل . أما مدخل الفندق فقد استوى فى اتساع وعمق تحت سقيفة تتدلى منها القناديل على هيئة تبهر الأبصار . وبدا بناء الفندق ضخما مرتفعا ينطق بجمال الهندسة ونعمة الثراء . أما حجرتى

فادخرت لى مفاجأة أخرى بألوان جدرانها الزرقاء وسجادتها الوثيرة وفراشها النحاسى المرتفع بأغطيته المزركشة ، وغير ذلك مما لا يوجد عادة إلا فى البيوت الكريمة بوطنى . تطالعنى هنا حضارة بلسان بليغ متفوقة ولا شك على حضارة الحيرة بدرجات ودرجات . ووجدتنى أتساءل ترى أين وكيف تعيش عروسة ؟. وقبل أن أنغمس فى الذكريات زارنى رجل متوسط العمر يرتدى سترة زرقاء وسروالا أبيض قصيرا ، قال باسما :

ـ قلشم .. مدير الفندق ..

فقدمت له نفسى فسألنى برقة :

ـ أى خدمة ؟

فقلت بصراحة :

ـ لا شىء مقدما على النوم الآن إلا أن تخبرنى بأجرة الإقامة .

فقال باسما :

ـ ثلاثة دنانير لليلة !

هالنى الرقم وقلت لنفسى إنه يبدو أن كل شىء يتمتع بالحرية فى الحلبة حتى الأسعار ، وكالعادة دفعت أجرة عشرة أيام بلياليها .

وأسلمت نفسى إلى فراش لم أحظ بمثل حنانه منذ غادرت وطنى .

واستيقظت مبكرا فجاءنى الفطور إلى حجرتى من الخبز واللبن والجبن

والزبد والعسل والبيض . أدهشنى الطعام بكميته وكيفيته فاقتنعت أكثر بأننى أزور عالما جديدا مثيرا . وغادرت الحجرة تحركنى لهفة وأشواق ، وأمل بأننى سأعثر على عروسة أيضا لكى تتم لعبة القدر . وقابلنى قلشم عند مدخل الفندق فقال لى :

ـــ توجد هوادج تحت تصرف الرحالة لمشاهدة المعالم الهامة ..

فتفكرت قليلا وقلت :

ـــ أود أن أبدأ بمفردى وكيفما اتفق ..

ومنذ اللحظة الأولى شملنى شعور بأننى فى مدينة كبيرة يذوب فيها الفرد فلا يدرى به أحد. ترامى أمام الفندق ميدان واسع مستدير تقوم على محيطه العمائر والحوانيت ، تتوسط نهايته قنطرة تعلو نهرا وتفضى إلى ميدان صغير تتفرع منه شوارع كبيرة لا ترى لها نهاية ، تحف بجوانبها العمائر والأشجار ، أين أتجه ؟.. وأين توجد عروسة ؟.. وكيف أسير بلا مرشد ؟!. تركت قدمى تقودانني بحرية فى مدينة الحرية ، فانبهرت بكل ما وقعت عليه عيناى بين خطوة وأخرى . شبكة من الشوارع لا تعرف لها أول من آخر ، صفوف من العمائر والبيوت والقصور ، حوانيت بعدد رمل الصحراء تعرض من ألوان السلع ما لا يحيط به حصر ، مصانع ومتاجر ودور لهو ، حدائق كثيرة متعددة الأشكال والألوان ، تيارات لا تنقطع من النساء والرجال والهوادج ، أغنياء

وكبراء ، وفقراء أيضا وإن كانوا أحسن درجات من فقراء الحيرة والمشرق ، ولا يخلو طريق من فارس من فرسان الشرطة . ملابس الرجال والنساء متنوعة ، وللجمال حظ موفور وكذلك الأناقة ، ويصادفك الاحتشام كما يصادفك التحرر القريب من العرى ، والجد والرزانة يؤاخيان المرح والبساطة ، وكأننى ألقى لأول مرة بشرا لهم وجودهم ووزنهم وإدلالهم بأنفسهم ، ولكن كيف يأمل آدمى فى العثور على عروسة فى هذا البحر الهادر بلا شطآن ؟!. سرت وتعبت واسترحت فى الحدائق وأنا أشعر طيلة الوقت بأننى لم أبدأ بعد . وندمت على أننى لم آخذ هودجا من هوادج الرحالة كما أشار قلشم ، غير أنه صادفنى حادثان مثيران . أولهما حادث فردى ألمت به فى حديقة عامة إذ رأيت رجالا من الشرطة يستجوبون بعض الأفراد ، ثم علمت أن البستانى عثر على جثة امرأة قتيلة فى ركن من الحديقة . وأمثال هذا الحادث تقع كثيرا فى كل مكان ، أما الذى أثار دهشتى وانزعاجى فكان مرور مظاهرة من نساء ورجال وهم يهتفون بمطالبهم ورجال الشرطة يتبعونهم دون أن يتعرضوا لهم بخير أو شر . تذكرت مظاهرة شبيهة شهدتها فى وطنى قصدت الوالى لتشكو إليه رفع المكوس وضيق الحال . أما هذه المظاهرة فكانت تطالب بالاعتراف بشرعية العلاقات الجنسية الشاذة !. لم أصدق عينى ولا أذنى ، وأيقنت بأننى أطوف بعالم

غريب ، وأن هوة سحيقة تفصل ما بينى وبينه ، وخالطنى خوف من المجهول . واقترب الظهر وارتفعت الحرارة إلى أقصى حد غير أن صيف الحلبة صيف محتمل ، ومضيت أتساءل عن كيفية الرجوع إلى الفندق عندما تهادى صوت فى الجو يصيح :

ــ الله أكبر ..

وثب قلبى فى صدرى وثبة عنيفة أشعلت النار فى حواسى . رباه إنه أذان . هذا مؤذن يدعو إلى الصلاة فهل الحلبة دار إسلامية ؟!. واندفعت على هدى الصوت حتى وجدت جامعا عند مدخل شارع . لم أسمع هذا الصوت ولا رأيت هذا المنظر منذ ربع قرن . إنى أولد من جديد وكأنما أكتشف الله لأول مرة . ودخلت المسجد ، توضأت ، ووقفت فى صف ورحت أصلى الظهر فى فرحة متوهجة ، بعين دامعة ، وصدر منشرح . وتمت الصلاة ومضى الناس ينصرفون ولكنى تسمرت فى مكانى حتى لم يبق فى الجامع إلا الإمام وأنا . هرولت نحوه ، حويته بين ذراعى ، وانهلت عليه تقبيلا . استسلم لانفعالى هادئا مدركا باسما ، ثم تمتم :

ــ أهلا بالغريب ..

وجلسنا غير بعيد من المحراب . قدمت له نفسى فقدم لى نفسه ، الشيخ حمادة السبكى ، من أهل الحلبة الصميمين . قلت بأنفاس

مضطربة وصوت متهدج :

ــ ما تصورت الحلبة دارا إسلامية ..

فقال بهدوء :

ــ الحلبة ليست من ديار الإسلام ..

ولما قرأ دهشتى قال :

ــ الحلبة دار الحرية ، تمثل فيها جميع الديانات ، فيها مسلمون ويهود ومسيحيون وبوذيون ، بل فيها ملحدون ووثنيون ..

فازددت دهشة وسألته :

ــ كيف تأتى لها ذلك يا مولاى ؟

فقال ببساطة :

ــ كانت فى الأصل وثنية ، وأتاحت حريتها الفرصة لكل من شاء أن يدعو إلى دينه ، وتوزعت الديانات أهلها فلم تبق اليوم إلا قلة من الوثنيين فى بعض الواحات !

فسألته واهتمامى يتصاعد :

ــ وبأى دين تلتزم الدولة ؟

ــ الدولة لا شأن لها بالأديان ..

ــ وكيف توفق بين أهل الملل والنحل ؟

فقال بوضوح :

ـــ تعامل الجميع على قدم المساواة الكاملة .

فسألته كالمحتج :

ـــ وهل يرضون بذلك ؟

ـــ كل طائفة تحتفظ فى داخلها بتقاليدها الذاتية ، واحترام يسود العلاقات العامة لا امتياز لطائفة ولو جاء رئيس الدولة منها ، وبالمناسبة أخبرك بأن رئيسنا الحالى وثنى !

دار مذهلة ومزلزلة للدماغ . وقلت متفكرا :

ـــ حرية لم أسمع عنها من قبل ، هل أتاك يا مولاى حديث المظاهرة التى تطالب بالاعتراف بشرعية العلاقات الشاذة ؟!

فقال الإمام باسما :

ـــ فيها مسلمون أيضا !

ـــ لا شك أنهم يتعرضون للجزاء داخل طائفتهم ..

نزع الشيخ عمامته فمسح على رأسه ثم أعادها وهو يقول :

ـــ الحرية هى القيمة المقدسة المسلم بها عند الجميع !

فقلت محتجا :

ـــ هذه حرية جاوزت الحدود الإسلامية ..

ـــ لكنها مقدسة أيضا فى إسلام الحلبة ..

فقلت وأنا أكابد خيبة أمل :

ـــ لو بعث نبينا اليوم لأنكر هذا الجانب فى إسلامكم ..

فتساءل بدوره :

ـــ ولو بعث عليه الصلاة والسلام أما كان ينكر إسلامكم كله ؟!

آه .. صدق الرجل وأذلنى بتساؤله . وقال الإمام :

ـــ طوفت بديار الإسلام كثيرا !

فقلت بأسى :

ـــ من أجل ذلك قمت برحلتى يا شيخ حمادة ، أردت أن أرى وطنى من بعيد ، وأن أراه على ضوء بقية الديار ، لعلى أستطيع أن أقول له كلمة نافعة ..

فقال الشيخ باستحسان :

ـــ أحسنت ، وفقك الله ، وستأخذ من دارنا أكثر من عبرة !

قلت وقد عاودنى حب استطلاع الرحالة :

ـــ أمامنا إذا سمحت فرص لتبادل الآراء ، ولكن هل تستطيع الآن أن تمدنى بمعلومات عن نظام الحكم فى هذه الدار العجيبة ؟

فقال الشيخ حمادة :

ـــ إنه نظام فريد ، لم يصادفك فيما رأيت ولن يصادفك فيما سترى ..

ـــ ولا دار الجبل ؟

ـــ لا أعرف شيئا عن دار الجبل حتى أدخلها فى المقارنة ، ما يصح أن تعرفه هو أن رئيس دولتنا ينتخب تبعا لمواصفات علمية وأخلاقية وسياسية ، فيحكم مقدار عشر سنوات ، ثم يعتزل ليحل محله قاضى القضاة ، وتجرى انتخابات جديدة بين الرئيس المعتـزل والمرشحين الجدد ..

فهتفت بحماس :

ـــ نظام حسن ..

ـــ كان الأجدر بالمسلمين أن يبشروا به قبل غيرهم ، هذا وللرئيس مجلس من أهل الخبرة فى جميع الأنشطة ، يعاونه بالرأى ..

ـــ وهل رأيه ملزم ؟

ـــ عند الاختلاف يعتزلون جميعا ويجرى الانتخاب من جديد ..

فهتفت :

ـــ نعم النظام ..

فواصل الشيخ حمادة السبكى حديثه :

ـــ أما الزراعـة والصناعـة والتجـارة فيقـوم بها القـادرون مـن الأهالى!...

فقلت وأنا أتذكر بعض ما رأيت من مشاهد :

ـــ لذلك يوجد أغنياء وفقراء ..

فقال الشيخ :

ـــ كما يوجد عاطلون ولصوص وقتلة !

فابتسمت قائلا بنبرة ذات مغزى :

ـــ الكمال لله وحده .

فقال بجدية :

ـــ ولكننا قطعنا شوطا لا يستهان به فى هذا السبيل !

ـــ لو أنكم تطبقون الشريعة ؟!

ـــ لكنكم تطبقونها !

فقلت بإصرار :

ـــ الحق أنها لا تطبق .

ـــ الالتزام هنا بالمرجع ، وهو يطبق نصا وروحا ..

ـــ ولكن الدولة ملتزمة بالأمن والدفاع فقط فيما يخيل إلى ..

ـــ وبالمشروعات العامة التى يعجز عنها الأفراد كالحدائق والجسور والمتاحف ، ولها مدارس بالمجان للنابغين من الفقراء ، ومستشفيات بالمجان كذلك ولكن جل الأنشطة فردية ..

فتفكرت مليا ثم سألته :

ـــ لعلكم تعتبرون أنفسكم أسعد البشر ؟

فهز رأسه جادا وقال :

ـــ إنه حكم نسبى يا شيخ قنديل ، ولا يمكن أن يطلق بثقة كاملة ما دام يوجد أغنياء وفقراء ومجرمون ، فضلا عن ذلك فحياتنا لا تخلو من قلق بسبب من الأطماع المتبادلة بيننا وبين الحيرة فى الجنوب ، وبيننا وبين دار الأمان فى الشمال ، فهذه الحضارة الفريدة مهددة وقد تندثر فى موقعة ، وقد تتدهور حتى مع النصر إذا اجتاحتنا الخسائر ، ثم إن الاختلافات الدينية لا تمر دائما بسلام ..

وسألنى عن برنامج رحلتى فلخصت له ما صادفنى مذ تركت الوطن ، فحزن الرجل لى وتمنى لى التوفيق . قال :

ـــ أنصحك باكتراء هودج سياحة فمعالم العاصمة أكثر من أن تحيط بها بنفسك وعندنا مدن أخرى كثيرة تستحق المشاهدة ، أما العثور على عروسة فى دارنا فأيسر منه الوصول إلى دار الجبل ..

فقلت بأسى :

ـــ إنى أدرك ذلك تماما ولكن لى مطلبا آخر هو أن أزور حكيم الحلبة ..

فقال بدهشة :

ـــ ماذا تعنى ؟.. للمشرق حكيمها ، وللحيرة حكيمها . أما هنا فمراكز العلم تموج بالحكماء ، وستجد عند أى منهم ما ترغب فى معرفته وأكثر ..

شكرت له حديثه ومودته وقمت وأنا أقول :

ـــ آن لى أن أذهب .

فأمسك بى قائلا :

ـــ بل سنتغدى معا فى بيتى ..

رحبت بالدعوة لأنغمس فى حياة الحلبة . سرنا معا حوالى ربع ساعة إلى شارع هادىء تحف به أشجار الأكاسيا على الجانبين ، واتجهنا إلى عمارة أنيقة يقيم الإمام فى دورها الثانى . لم أشك أن الإمام من الطبقة الوسطى ولكن جمال حجرة الاستقبال دلنى على ارتفاع مستوى المعيشة فى الحلبة . وصادفتنى تقاليد غريبة تعتبر فى وطنى بعيدة عن الإسلام ، فقد رحبت بى زوجة الإمام وكريمتها بالإضافة إلى ابنيه . وتناولنا الغداء على مائدة واحدة ، بل قدمت إلينا أقداح نبيذ . إنه عالم جديد وإسلام جديد . وارتبكت لوجود المرأة وكريمتها ، فمنذ بلغت مشارف الشباب لم تجمعنى مائدة طعام مع امرأة لا أستثنى من ذلك أمى نفسها . ارتبكت وغلبنى الحياء ولم أمس قدح النبيذ . قال الإمام باسما :

ـــ دعوه لما يريحه ..

فقلت :

ـــ أراك تأخذ برأى أبى حنيفة ؟

فقال :

ـــ لا حاجة بنا إلى ذلك فالاجتهاد عندنا لم يتوقف ، ونحن نشرب مجاراة للجو والتقاليد ولكننا لا نسكر ..

كانت زوجه ست بيت ، أما سامية كريمته فكانت طبيبة أطفال بمستشفى كبير ، وأما الابنان فكانا يعدان نفسيهما ليكونا مدرسين . وأذهلتنى انطلاقة الأم وكريمتها فى الحديث أكثر مما أذهلنى العرى فى المشرق . تحدثتا بتلقائية وشجاعة وصراحة كالرجال سواء بسواء . وسألتنى سامية عن الحياة فى دار الإسلام وعن دور المرأة فيها .. ولما وقفت على واقعها انتقدته بشدة ، وراحت تعقد المقارنات بينه وبين المرأة فى عهد الرسول والدور الذى لعبته ، حتى قالت :

ـــ الإسلام يذوى على أيدكم وأنتم تنظرون ..

وتأثرت أيضا بجمالها وشبابها ، وضاعف من تأثرى طول حرمانى وتقدمى فى السن . وحكى لهم الإمام جانبا من حياتى ورحلتى وهدفى منها . قال :

ـــ على أى حال فليس هو من المستسلمين ..

فقالت سامية لى :

ـــ إنك تستحق الإعجاب ..

فبلغ بى التأثر مداه. وجاء العصر فأدينا صلاته جميعا وراء الإمام مما دعانى إلى التفكير والتأمل أكثر . وغادرتهم بجسدى وهم يحتلون بعمق صميم

روحي . وفي الطريق ثار بي الحنين إلى الاستقرار والدفء والحب . أين عروسة ؟. أين دار الجبل ؟. ضاع الشباب تحت الأرض ، فمتى أستقر وأكون أسرة وأنجب ذرية ؟ حتى متى أظل ممزقا بين نداءين ؟!.

وفي اليوم التالي اكتريت هودجا ، طاف بي بمعالم العاصمة الهامة ، مراكز التعليم ، القلاع ، المصانع الكبرى ، المتاحف ، الأحياء القديمة . وأخبرني المرشد أن أهل الديانات المختلفة يمثلون سير أنبيائهم في الجوامع والكنائس والمعابد فأعلنت عن رغبتي في مشاهدة سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام ، فمضى بي إلى أكبر جامع في العاصمة ، وجلست بين المشاهدين ، وراح قوم يمثلون السيرة في باحة الجامع من بدايتها إلى نهايتها . رأيت فيما خيل إلى النبي والصحابة والكفار ، وهو ما اعتبرته جرأة تقارب الكفر ، ولكن كان على أن أرى كل ما يستحق التسجيل . وأثر في الشخص الذي يقوم بدور الرسول للحد الذي صدقته ، فانفعلت به انفعالا فاق كل تصور حتى رأيته في المنام . وقلت لنفسي :

ـــ إن ما يدهشني حقا هو أن إيمان هؤلاء الناس صادق وأمين ..

ودعوت الإمام وأسرته للغداء في الفندق فتوثقت علاقتي بهم أكثر . وقال لي الشيخ :

ـــ سأعد لك لقاء مع حكيم ذي مكانة يدعى مرهم الحلبي ..

فشكرت له اهتمامه بى ، وقضينا وقتا طيبا ، وخفق قلبى بالسرور والانشراح طوال الوقت . وفى صباح اليوم التالى غادرت حجرتى بالفندق لزيارة الحكيم . غير أننى وجدت كثيرين من النزلاء مجتمعين فى مدخل الفندق وهم يخوضون فى حديث أثار اهتمامهم فيما بدا إلى أقصى حد .

ــ الخبر يقول إن قائدا من قواد الحيرة ثار على الملك ولكنه فشل فهرب إلى دار الحلبة ..

ــ أتعنى أنه يقيم الآن فى الحلبة ؟

ــ يقال إنه يقيم فى واحة من واحات الحلبة ..

ــ المهم أن ملك الحيرة يطالب بالقبض عليه وتسليمه له .

ــ لكن ذلك مخالف لمبادئ « المرجع » .

ــ وقد رفض طلبه ..

ــ هل تنتهى المسألة عند هذا الحد ؟

ــ إنهم يتهامسون عن حرب ..

ــ وإذا انتهزت دار الأمان الفرصة وهاجمت دار الحلبة ؟!

ــ هذه هى المشكلة الحقيقية ..

تسلل القلق إلى أعماق أنا الذى تطاردنى الحروب من دار إلى دار . وأردت الذهاب إلى الحكيم ولكن هالنى أن أرى الميدان وهو يتلقى

مظاهرات عديدة كأنما كانت على ميعاد . اضطررت للبقاء فى مدخل الفندق ، أنظر وأسمع وأنا من الدهشة فى غاية . مظاهرة تطالب بتسليم القائد الهارب . مظاهرة تنذر من يسلمه بالويل . مظاهرة تطالب بإعلان الحرب على الحيرة . مظاهرة تطالب بالمحافظة على السلام بأى ثمن . ملكتنى الحيرة وتساءلت عما يمكن أن يفعله حاكم بإزاء هذه الآراء المتضاربة . وانتظرت حتى خلا الميدان فذهبت مسرعا إلى دار الحكيم مرهم فبلغتها متأخرا ساعة عن الميعاد . استقبلنى فى حجرة أنيقة حوت الكتب والمقاعد والشلت معا . وجدته طويلا نحيلا فى الستين من عمره ، أبيض الشعر واللحية ، يرفل فى عباءة زرقاء خفيفة . قبل اعتذارى عن التأخير ، ورحب بى ، ثم سألنى :

— أيهما تفضل ، الجلوس على المقاعد أم الشلت ؟!

فقلت باسما :

— الشلتة أحب إلى ..

فقال ضاحكا :

— هكذا العرب ، إنى أعرفكم ، زرت بلادكم ودرست معارفكم .

فقلت بحياء :

— لست من علماء وطنى ولا فلاسفته ولكنى محب للمعرفة ، ومن أجل ذلك قمت بهذه الرحلة ..

فقال بهدوء مشجع :

— فى هذا ما يكفى ، وما هدفك من الرحلة ؟

فتفكرت مليا ثم قلت :

— زيارة دار الجبل .

— لم أعرف أحدا زارها أو كتب عنها .

— ألم تفكر يوما فى زيارتها ؟

فقال باسما :

— من آمن بعقله أغناه عن كل شيء .

فقلت مستدركا :

— دار الجبل ليست بغايتى الأخيرة ولكنى أرجو أن أرجع منها إلى وطنى بشيء يفيده ..

— أرجو لك التوفيق ..

فقلت كالمعتذر :

— الحق أنى جئت لأسمع لا لأتكلم ..

— هل لديك سؤال يشغلك ؟

فقلت باهتمام :

— حياة كل قوم تتكشف عادة عن فكرة أساسية ؟

فاعتدل فى جلسته وقال :

ـــ لذلك يسألنا محبو المعرفة من أمثالك كيف صنعتم حياتكم .

ـــ وحياتكم جديرة بإثارة هذا السؤال ..

ـــ الجواب بكل بساطة ، لقد صنعناها بأنفسنا .

فتابعته فى تركيز وصمت ، فقال :

ـــ لا فضل فى ذلك لإلٰه ، آمن مفكرنا الأول بأن هدف الحياة هو الحرية ، ومنه صدر أول دعوة للحرية ، وراحت تتسلسل جيلا بعد جيل ..

وابتسم ، وصمت حتى تستقر كلماته فى مستقرها من نفسى وقال :

ـــ بذلك اعتبر كل تحرر خيرا وكل قيد شرا ، أنشأنا نظاما للحكم حررنا من الاستبداد ، وقدسنا العمل ليحررنا من الفقر ، وأبدعنا العلم ليحررنا من الجهل ، وهكذا .. وهكذا .. فإنه طريق طويلة بلا نهاية ..

حفظت كل كلمة بدرت منه باهتمام بالغ أما هو فقد واصل حديثه قائلا :

ـــ لم يكن طريق الحرية سهلا ، ودفعنا ثمنه عرقا ودما ، كنا أسرى الخرافة والاستبداد ، وتقدم الرواد ، وضربت الأعناق ، واشتعلت الثورات ، ونشبت حروب أهلية ، حتى انتصرت الحرية وانتصر

العلم ..

حنيت رأسى مظهرا إعجابى فراح ينقد أنظمة دار المشرق ودار الحيرة ويسخر منهما ، بل سخر أيضا من نظام دار الأمان التى لم أزرها بعد ، وحتى دار الإسلام لم تسلم من حدة لسانه . والظاهر أنه قرأ تغيرا فى صفحة وجهى فسكت ، ثم قال بنبرة المعتذر :

— إنكم لا تألفون الرأى الحر ؟

فقلت بهدوء :

— فى حدود معينة ..

فقال متراجعا :

— معذرة ، ولكن عليك أن تعيد النظر فى كل شىء .

فقلت مدافعا :

— داركم لا تخلو من فقراء ومنحرفين ..

فقال بحماس :

— الحرية مسئولية لا يستطيع الاضطلاع بها إلا القادرون ، وليس كل من ينتمى إلى الحلبة أهلا لهذا الانتماء ، لا مكان للعجزة بيننا ..

فتساءلت بحرارة :

— أليست للرحمة قيمة مثل الحرية ؟!

— هذا ما يردده أهل الديانات المختلفة ، وهم الذين يشجعون

العجزة على البقاء ، أما أنا فلا أجد معنى لكلمات مثل الـرحمة أو العدالة ، يجب أولا أن نتفق على من يستحق الرحمة ومن يستحـق العدالة !

ـــ إنى أخالفك فى ذلك حتى النهاية .

ـــ أعرف ذلك !

ـــ لعلك ترحب بالحروب ؟

فقال بوضوح :

ـــ إذا وعدت بمزيد من الحرية ، ولست أشك مطلقا فى أن انتصارنا على الحيرة والأمان خير ضمان لسعادة شعبيهما !

وبهذه المناسبة إننى على مبدأ الجهاد فى الإسلام .

وراح يفسره تفسيرا عدوانيا فتصديت لتصحيح نظريته ولكنه لوح بيده باستهانة وقال :

ـــ لديكم مبدأ عظيم ولكنكم لا تملكون الشجاعة الكافية للاعتراف به !

فسألته :

ـــ إلى أى دين تنتمى أيها الحكيم مرهم ؟

فأجاب باسما :

ـــ دين إلٰهه العقل ورسوله الحرية !

ـــ وجميع الحكماء مثلك ؟

فقال ضاحكا :

ـــ ليتنى أستطيع أن أزعم ذلك ..

وجاءنى بكتابين ، الأول هو « المرجع » أو القانـون الأول فى الحلبة ، والثانى من تأليفه وعنوانه « اقتحام المستحيل ». وقال :

ـــ اقرأ هذين الكتابين تعرف الحلبة على حقيقتها ..

فشكرت لـه كرمـه كما شكـرت لـه حسن ضيافتـه ثم ودعتـه وانصرفت . وتناولت الغداء فى الفندق وكانت الألسنة جميعا تلهج بالحرب . وذهبت عصرا إلى الجامع فصليت وراء الشيـخ حامـد السبكى ، ودعانى إلى مجالسته فلبيت مسرورا . وإذا به يسألنى باسما:

ـــ هل عثرت على عروسة ؟

فقلت بجدية :

ـــ التعلق بعروسة وهم لا معنى له !

فصدق على قولى قائلا :

ـــ هذه هى الحقيقة .

ثم سألنى بعد صمت قصير :

ـــ هل تمضى فى رحلتك مع أول قافلة ؟

فقلت وأنا أشعر بشىء من الحرج :

ـــ كلا ، أريد البقاء فترة أخرى ..

ـــ قرار حسن ، ويتوافق مع الأحداث المتلاحقة ، فقد منع ملك الحيرة سير القوافل بين الحيرة والحلبة كرد على رفضنا تسليم القائد الهارب .

فدهشت وقلقت فقال الشيخ :

ـــ وقد غضب كبار ملاك الأراضى ورجال الصناعة والتجارة وعقدوا مع الحاكم اجتماعا خطيرا يطالبون فيه بإعلان الحرب !

فتساءلت بقلق :

ـــ وكيف يكون موقف دار الأمان ؟!

فقال الشيخ باسما :

ـــ كأنك صرت من أهل الحلبة !، الخلاف بين الحلبة والأمان يدور حول ملكية بعض عيون الماء فى الصحراء الممتدة بيننا وبينهم ، سيسوى النزاع لصالح الأمان فورا كيلا تفكر فى الغدر ..

فقلت بقلق :

ـــ إنى غريب . ونذر الحرب تتطاير من حولى ..

ـــ أفضل ما تفعل أن تبقى فى الحلبة ، وإن طال المقام فلديك من المال ما ييسر لك عملا مثمرا ..

تخليت عن القافلة رغم إشفاقى من أن تكون آخر قافلة تقوم نحو دار

الأمان. شدتنى الحلبة إليها بقوة بما وجدت فى جوها من نقاء، وما آنست فى بعض أهلها من أمل . وقسمت وقتى بين السياحة وأسرة الشيخ حامد السبكى ، أما عروسة فكانت تحلق مع نجوم الليل . وتشبعت الحياة اليومية بخواطر الحرب ، واستاء كثيرون للتنازلات التى نالتها دار الأمان دون أن تسفك لها نقطة دم . وقال لى مدير الفندق متجهما :

ـــ رغم تضحيتنا بعيون المياه فقد تغدر بنا دار الأمان ..

وتوترت الأعصاب لأقصى حد وانتقلت إلىّ عدواها فأصابنى ما أصاب الناس من حولى ، وأفزعتنى الساعات المحدودة التى أمضيها فى وحدة بالفندق ما بين السياحة وأسرة آل السبكى . وثارت أعصابى ، وطالبتنى بالإشباع والاستقرار . ولما أعلنت الحلبة الحرب ، وأرسلت جيشها إلى الحيرة ، ثارت أعصابى أكثر ، ورحت أنقب فى العاصفة الحمراء عن كهف آمن ألوذ به . وتحدث الناس عن الحرب ، ووازنوا بين القوات والإمكانيات ، وانحصرت أنا بعنف فى التماس أسباب الإشباع والاستقرار . نسيت كل شىء إلا هذا الهدف القريب . كأننى فى سباق أو مطاردة . وشجعنى على ذلك جو الأسرة وصداقة سامية الصادقة لى ، وإعجابها بالرحالة ، وعطفها على أحزانه الطويلة . قلت لنفسى « إنها فتاة كاملة ، ولا حياة لى بدونها ». وقلت للشيخ الإمام :

ـــ توكلت على الله وقررت أن أتزوج ..

فتساءل الشيخ :

ـــ هل عثرت على عروسة ؟

فقلت فى حياء :

ـــ انتهت عروسة على أى حال ..

ـــ هل وقع اختيارك على أحد ؟

فقلت بهدوء :

ـــ مطلبى عندكم !

فابتسم ابتسامة مشجعة وتساءل :

ـــ أتتزوج كرحالة أم مقيم ؟

فقلت بصدق :

ـــ لا أظن أن الحلم سيتلاشى ..

ـــ كل شيء يتوقف على إرادتها ، لم لا تكلمها بنفسك ؟

فارتبكت وقلت :

ـــ يستحسن أن تنوب عنى .

فقال بعطف :

ـــ ليكن ، إنى أدرك موقفك ..

ـــ وتلقيت الموافقة فى اليوم التالى . وكنت متلهفا فاستجابوا لى . استأجرت شقة فى نفس الشارع . تعاونا على تأثيثها . وتم العقد فى هدوء يناسب ظروف الحرب . وجمعنا بيت الزوجية فسعد قلبى

واستعدت توازنى . وجاءت أنباء القتال مشجعة ولكن الحزن شق طريقه إلى قلوب كثيرة وارتفعت أسعار سلع لا حصر لها . واقترح علىّ الشيخ حامد السبكى المشاركة فى محل لبيع التحف والحلى فوافقته بحماس . وكان شريكاى شقيقين مسيحيين ، وكان محلهما يوجد بميدان الفندق . واقتضى العمل أن أبقى فى المحل معهما سحابة النهار فأقبلت على العمل — لأول مرة فى حياتى — بنشاط محمود . وكانت سامية تمضى نفس الوقت فى المستشفى . وقد قالت لى :

— يجب أن تجعل من الحلبة مقامك الدائم ، أتمم رحلتك إذا شئت ولكن لتكن العودة إلى هنا ..

فقلت بصراحة أيضا :

— قد أرى أن أرجع إلى وطنى كما رسمت لأنسخ كتابى ولا بأس من الإقامة هنا ..

فقالت بسرور :

— فى هذه الحال سأصحبك إلى وطنك فى الذهاب والإياب ، أما الإقامة الدائمة فلن نجد مثل الحلبة فى حضارتها ..

فترددت قليلا ثم قلت :

— يخيل إلى أن عملى الجديد سيدر علينا رزقا وفيرا ، ألا يدعوك ذلك إلى التفكير فى الاستقالة من عملك فى المستشفى ؟!

فضحكت ضحكة عذبة وقالت :

ـــ العمل فى دارنا مقدس للمرأة والرجل على السواء ، عليك أن تفكر من الآن فصاعدا كرجل من رجال الحلبة !

فرنوت إلى بطنها بحنان وقلت :

ـــ إنك فى حكم الأم يا سامية ..

فقالت بمرح :

ـــ هذا شأنى أنا .

وتجلت الأمومة للعين والصيف يطوى آخر صفحاته . ووردت نسائم الخريف مترعة بالرطوبة وظلال السحب . وكل يوم أكتشف من عالم زوجتى المحبوبة جديدا . إنها معتزة بنفسها فى غير غرور ، مغرمة بالمناقشة ، مؤمنة صادقة وبقوة انشرح لها صدرى . لعل أعجب ما صادفته فى رحلتى هو إسلام الحلبة الذى يستعر التناقض بين ظاهره وباطنه . قالت لى :

ـــ الفرق بين إسلامنا وإسلامكم أن إسلامنا لم يقفل باب الاجتهاد ، وإسلام بلا اجتهاد يعنى إسلاما بلا عقل ..

ذكرنى قولها بدروس أستاذى القديم . غير أنى كنت مغرما بالأنثى فيها وملاحتها المشبعة لغريزتى المحرومة . طاردت تلك الملاحة بنهم غير مبال بما عداها غير أن شخصيتها كانت أصدق وأقوى من أن تذوب فى

ملاحة الأنثى الناضجة . وجدت نفسي وجها لوجه مع ذكاء لماع ، ورأى مستنير ، وطيبة ممتازة . واقتنعت بتفوقها علىّ فى أمور كثيرة فساءنى ذلك ، أنا الذى لم أر فى المرأة إلا متعة للرجل . وخالط ولعى بها حذر وخوف ، ولكن الواقع طالبنى بالتكيف مع الجديد ، وملاقاته فى منتصف الطريق ، حرصا عليه ، وعلى سعادتى المتاحة . وقلت لنفسى :

— إنه لسر أن تهبنى نفسها بهذا السخاء ، وإننى لسعيد الحظ حقا !

ومداراة لمخاوفى الدفينة قلت لها مرة :

— إنك يا سامية كنز لا يقدر بثمن ..

فقالت لى بصراحة :

— وفكرة الرحالة الذى يضحى بالأمان فى سبيل الحقيقة والخير تفتننى كثيرا يا قنديل ..

وذكرتنى بمشروعى النائم . أيقظتنى من سبات الراحة والعسل . من الحب والأبوة والحضارة . وقلت كأنما لأستحث المستنيمة للواقع :

— سأكون أول من يكتب عن دار الجبل .

فقالت ضاحكة :

— لعلك تجدها أبعد ما يكون عن الحلم .

فقلت بإصرار :

ـــ إذن أكون أول من يبدد الحلم ..

وانطوى الخريف وهل الشتاء . ليس برده أقسى من برد وطنى ولكنه غزير الأمطار ولا ترى شمسه إلا فى أوقات نادرة . وتشتد به الرياح وتزمجر ويقصف الرعد هائلا فيحفر أثره فى أعماق النفس . وتحدث الناس عن الحرب التى لا تريد أن تنتهى وشاركتهم فى عواطفهم بصدق فتمنيت أن تنتصر الحرية على الملك الإلـٰه وأن يولد وليدى المنتظر فى أحضان الحرية والأمان . ولحقت سامية بى فى بيتنا ذات مساء عائدة من عملها ، متألقة بفرحة أحيت نضارتها التى أضناها الحمل وهتفت :

ـــ أبشر ، إنه النصر !

وراحت تخلع معطفها وتقول :

ـــ سلم جيش الحيرة ، انتحر الملك الإلـٰه ، أمست الحيرة والمشرق امتدادا للحلبة ، وكتبت الحرية والحضارة لشعوبهما ..

انتقلت الفرحة إلى قلبى ، غير أن بعض المخاوف المتولدة من تجارب الماضى جعلتنى أتساءل :

ـــ ألا يؤدون ثمن الهزيمة بطريقة ما ؟

فقالت بحماس :

ـــ مبادىء المرجع واضحة ..، ولم يبق من عقبة قائمة فى طريق الحرية إلا دار الأمان ..

فقلت ببراءة :

ــ إنها على أى حال لم تغدر بكم وأنتم تكابدون حربا طويلة ..

فقالت بحدة :

ــ هذا حق ، ولكنها عقبة فى طريق الحرية ..

وكان يوم عودة الجيش الظافر يوما مشهودا . خرجت الحلبة رجالا ونساء لاستقباله ورشقه بالزهور رغم برودة الجو وانهلال المطر . وتواصلت الاحتفالات على جميع المستويات أسبوعا كاملا . وسرعان ما لاحظت ــ ما بين الطريق ومحل عملى فى ميدان الفندق ــ أن حالا غريبة ، مناقضة للأفراح ، تسرى بقوة ، وبلا تردد ، ولا حذر . تطايرت إشاعات عن عدد القتلى والجرحى مصحوبة بالضيق والأسى . ووزعت منشورات تتهم الدولة بأنها ضحت بأبناء الشعب لا لتحرير شعوب المشرق والحيرة ولكن من أجل مصالح ملاك الأراضى والمصانع والمتاجر ، وأنها كانت حرب « قوافل » لا مبادئ . وتلقيت منشورا آخر يتهم أصحاب المنشورات السابقة بأنهم أعداء الحرية وعملاء دار الأمان . ونتيجة لذلك قامت مظاهرات صاخبة تهاجم دار الأمان ، وتطعن فى اتفاقية التنازل لها عن عيون الماء . واجتمع الحاكم بمجلس أهل الخبرة وصدر قرار بالإجماع بإلغاء اتفاقية عيون المياه ، واعتبار العيون ملكية مشتركة بين الحلبة والأمان كما كان الحال قديما . ومضى الناس من

جديد يتحدثون عن حرب جديدة محتملة بين دارى الحلبة والأمان !

وجاء الشيخ السبكى وأسرته للغداء على مائدتى ، وجلسنا نتحادث ونتبادل الآراء ، وقلت للشيخ كالمحتج :

ــ إذا كان هذا الاضطراب نتيجة لنصر حاسم فكيف كان يكون الحال لو جاء نتيجة لهزيمة ؟!

فأجابنى باسما :

ــ هذه هى طبيعة الحرية ..

فقلت بصراحة :

ــ إنها تذكرنى بالفوضى !

فقال ضاحكا :

ــ هى كذلك لمن لم يتعامل مع الحرية .

فقلت بمرارة :

ــ ظننتكم شعبا سعيدا ولكنكم شعوب تمزقها الخلافات الخفية ..

ــ لا دواء إلا المزيد من الحرية ..

ــ وكيف تحكم أخلاقيا على إلغاء اتفاقية عيون المياه ؟

فقال بجدية :

ــ كنت أمس فى زيارة للحكيم مرهم الحلبى فقال لى إن تحرير البشر أهم من هذه القشور ..

فهتفت :

ــ القشور !.. لا بد من الاعتراف بأساس أخلاق .. وإلا انقلب العالم إلى غابة !

فقالت سامية ضاحكة :

ــ لكنه كان وما زال غابة !

وقال الإمام :

ــ انظر يا قنديل وطنك دار الإسلام فماذا تجد به ؟.. حاكم مستبد يحكم بهواه فأين الأساس الأخلاق ؟ ورجال دين يطوعون الدين لخدمته فأين الأساس الأخلاق ؟، وشعب لا يفكر إلا فى لقمته فأين الأساس الأخلاق ؟!.

اعترضت حلقى غصة فسكت . وعاودتنى ذكرى الرحلة فسألت :

ــ هل تقوم الحرب قريبا ؟

فقالت سامية :

ــ لن تقوم إلا إذا شعر أحد الطرفين بأنه أقوى أو إذا غلبه اليأس .

وتساءلت حماتى :

ــ لعلك تفكر فى الرحلة ؟

فقلت باسما :

ـ يجب أن أطمئن أولا على سامية ..

وأنجبت سامية وليدها الأول فى أواخر الشتاء . وبدلا من أن أتأهب للرحيل استسلمت للحياة الناعمة ما بين البيت والمحل . انغمست فى الحلبة ، فى الحب ووفرة الرزق والأبوة والصداقة وكنوز السماء والحدائق التى لا نهاية لحسنها . ما حلمت بشىء أجمل من أن يدوم الحال . وتوالت الأيام حتى صرت أبا لمصطفى وحامد وهشام . على أننى رفضت الاعتراف بالهزيمة ، وكنت أقول لنفسى فى حياء :

ـ آه يا وطنى .. آه يا دار الجبل !

وكنت أسجل بعض الأرقام فى دفتر الحسابات بمحل التحف عندما وجدت أمامى عروسة !. ليس حلما ما أرى ولا وهما !. هى عروسة ترفل فى وزرة قصيرة ومطرف مطرز باللآلئ مما ترتديه نساء الطبقة المحترمة فى فصل الصيف . لم تعد شابة ، ولا منطلقة عارية ، ولكنها ما زالت متوجة بجمال وقور محتشم . كأنها معجزة انبثقت من المستحيل . كانت تقلب بين يديها عقدا من المرجان وأنا أتطلع إليها فى ذهول . وحانت منها التفاتة إلىّ فالتصقت عيناها بوجهى وهما يتسعان ونسيت نفسها كما نسيت نفسى . ناديت مبتهلا :

ـ عروسة !

فرددت بذهول :

ـ قنديل !

وترامقنا حتى قررنا فى وقت واحد أن نفيق من ذهولنا وأن نرجع إلى الواقع . قمت إليها فتصافحنا متناسين ما حل بشريكى من دهشة . وسألتها :

ـ كيف حالك ؟

ـ لا بأس ، كل شىء طيب ..

ـ مقيمة هنا فى الحلبة ؟

ـ منذ تركت الحيرة !

وبعد تردد سألت :

ـ وحدك ؟

ـ متزوجة من رجل بوذى ، وأنت ؟

ـ متزوج وأب .

ـ لم أنجب أطفالا ..

ـ أرجو أن تكونى سعيدة ..

ـ زوجى رجل فاضل وتقى وقد اعتنقت دينه ..

ـ متى تزوجت ؟

ـ منذ عامين ..

ـ يئست من العثور عليك ..

ـــ إنها مدينة كبيرة .

ـــ وكيف كانت حياتك قبل الزواج ؟

فلوحت بيدها بامتعاض وقالت :

ـــ كان عام معاناة وعذاب !

فتمتمت :

ـــ يا لسوء الحظ ..

فقالت باسمة :

ـــ الختام حسن .. سنقوم برحلة إلى دار الأمان ، ومنها إلى دار الجبل ، ثم نسافر إلى الهند ..

فقلت بحرارة :

ـــ لتحل بك بركة الله فى كل مكان !

ومدت لى يدها فتصافحنا ، وتناولت مشتراها ، ثم ذهبت بسلام . وجدت نفسى مطالبا بإلقاء ضوء على الموقف أمام شريكى . وواصلت عملى كاتما انفعالاتى ، مع اعتقاد راسخ بأن كل شىء قد انتهى . واعترفت لسامية بما كان ، وببساطة ولا مبالاة . ولم أخل من شعور بالإثم إزاء ما أضطرم به صدرى من اهتمام زائد . اهتز اهتزازة عنيفة وتفجرت من جدرانه ينابيع أسى وحنين . غمرته دفقات حارة من الماضى حتى أغرقته . ولا أستبعد أن الحب القديم رفع رأسه ليبعث من

جديد ولكن الواقع الجديد كان أثقل وأقوى من أن تعبث به الرياح . غير أن الرغبة الكامنة فى الرحلة استيقظت فى روعة ووثبت إلى المقدمة متطلعة إلى الغد بإرادة صلبة لا تلين . وخشيت أن أندفع إلى تنفيذها فأجلب على نفسى الظنون ، فاتخذت قرارا بتأجيلها عاما ، على أن أمهد لها فى أثناء العام بما يهيئ الأنفس لتقبلها .

وقد كان .

وأذنت لى زوجتى المحبوبة بلا حماس وبلا فتور . ووكلت عنى الشيخ الإمام ليحل محلى فى التجارة لحين عودتى ، وخصصت للرحلة من الدنانير ما يوفر لى حياة كريمة . ووعدت بالعودة إلى الحلبة عقب الرحلة ، على أن أصطحب زوجتى وأبنائى إلى دار الإسلام فأنسخ كتاب الرحلة وألقى الباقين على قيد الحياة من أهلى ، ثم نرجع إلى الحلبة .

وأشبعت أشواقى من سامية ومصطفى وحامد وهاشم ، وتركت زوجتى وهى تستقبل فى جوفها حياة جديدة ..

دار الأمان

تحركت القافلة تشق ظلمات الفجر ، مستقبلة طلائع الصيف . الشيخ السبكى قال لى عن جو دار الأمان :

ــ شتاؤها قاتل ، خريفها قاس ، ربيعها لا يحتمل ، فعليك بالصيف ..

وكالعادة ذكرتنى القافلة بالأيام الماضية ولكنى أمسيت كهلا يتأثر بقدر . وشعشع ضوء النهار فكشف صحراء جديدة ، كثيرة التلال ، تحد جوانبها وديان منخفضة وتنتشر بأرجائها نباتات شوكية كالقنافذ تتميز بخضرتها اليانعة ووحشيتها المثيرة .. وبعد أسابيع من السير بلغنا منطقة مياه العيون ، وهى كثيرة ، ولكنها لا تبرر نذر الحرب التى تهدد بها سلام دارين كبيرتين كالحلبة والأمان . وتواصل السير فى أرض آخذة فى الارتفاع التدريجى حتى عسكرنا فى هضبة النسر ، وقال قائد القافلة :

ــ سوف نتحرك عند منتصف الليل لنصل فجرا إلى سور دار الأمان ..

وواصلنا السير فى جو لطيف حتى تراءى لنا السور العظيم على ضوء المشاعل . ووقفنا أمام البوابة . تقدم منا رجل بين حاملى المشاعل وصاح بصوت غليظ :

ــ أهلا بكم فى الأمان عاصمة دار الأمان ، أهلا بكم فى دار العدالة الشاملة !

وصمت الرجل دقيقة ثم قال :

ــ سيذهب التجار مع مرشد إلى المركز التجارى أما الرحالة فيذهبون إلى مركز السياحة .

لم أذهب إلى فندق مباشرة كما فعلت فى المشرق والحيرة والحلبة ولكنى تبعت المرشد إلى دار رسمية صغيرة متينة البنيان ، نظيفة ، تقوم فى رعاية حراس مسلحين ، واقتدت إلى حجرة مضاءة بالمشاعل يتصدرها موظف وراء مكتب ، وعلى جانبيها حارسان كأنهما تمثالان . مثلت أمامه فسألنى عن اسمى ، وعمرى ، وما أحمل من دنانير ، وعن تاريخ رحلتى والهدف منها . ولذت بالصدق المطلق فقال الرجل :

ــ سأعتبرك من أهل الحلبة بعد أن تقبلتها دارا للعمل والإقامة الزوجية .

فلم أعترض ، فقال :

ـــ سنسمح لك بإقامة عشرة أيام وهى كافية لما يريده السائح .

فسألت :

ـــ وإذا طابت لى الإقامة ورغبت فى مدها ؟

فى تلك الحال تقدم طلبا برغبتك لننظر فيه ، ونقرر قبوله أو رفضه .

فأحنيت رأسي راضيا مخفيا فى الوقت نفسه دهشتى ، فرجع يقول :

ـــ وسنعين لك مرافقا ملازما ..

فسألته :

ـــ هل يعرض علىّ لأقبله أو أرفضه ؟

ـــ بل هو نظام متبع لا مفر منه لخير الغرباء !

وصفق بيديه فدخل الحجرة رجل قصير فى الستين يرتدى نفس الملابس المكونة من سترة كأنها جبة قصيرة ووزرة تصل إلى الركبتين وصندل وطاقية كأنها خوذة من قطن أو كتان . قال الموظف وهو يردد رأسه بيننا :

ـــ قنديل محمد العنابى سائح .. فلوكة مرشدك ومندوب مركز السياحة .

وغادرنا المركز وفلوكة يتبعنى صامتا كأنه ظلى وقد سلبنى روح المغامرة والحرية . وخطا خطوة واسعة فصار إلى جانبى فخضنا الظلام معا مستأنسين بأضواء النجوم ومشاعل حراس الأمن . قال

باقتضاب :

— نحن فى الطريق إلى الفندق ..

ومن خلال ميدان مربع اقتربنا من الفندق الذى لاح على ضوء المشاعل فخما عظيما لا يقل روعة عن فندق الحلبة . أما الحجرة فكانت أقل فى المساحة وأكثر بساطة ولكن لا ينقصها شىء من أسباب الراحة ، كما كانت بالغة النظافة . ولاحظت وجود سريرين بها جنبا إلى جنب فتساءلت بقلق :

— ما معنى وجود السرير الآخر ؟

فأجاب فلوكة بهدوء :

— إنه لى ..

فسألته باحتجاج لم أعن بإخفائه :

— أتنام معى فى حجرة واحدة ؟

— طبعا ، ما معنى أن نشغل حجرتين إذا كان يكفى أن نشغل حجرة واحدة ؟

فقلت باستياء :

— قد يطيب لى أن أنفرد بحجرة !

فقال دون أن يخرج عن هدوئه :

— ولكن هذا هو النظام المتبع فى دارنا !

فتساءلت متذمرا :

ــ إذن لن أحظى بالحرية هنا إلا فى دورة المياه .

فقال ببرود :

ــ ولا هذه أيضا !

ــ أتعنى ما تقول حقا ؟

ــ لا وقت لدينا للهذر .

فقطبت هاتفا :

ــ الأفضل أن ألغى الرحلة .

ــ لن تجد قافلة قبل مرور عشرة أيام .

وراح يغير ملابسه ويرتدى جلباب النوم ومضى نحو سريره وهو يقول :

ــ كل شىء هنا جديد فهو غير مألوف فتحرر من أسر العادات السيئة ..

وانهزمت أمام الواقع فغيرت ملابسى وركنت إلى فراشى ، وهرب منى النوم طويلا من شدة الانفعال حتى غلبنى التعب .

ومع الصباح بدأ الحرج ، غير أنى أمر على الأشياء مر الكرام ثم قادنى فلوكة إلى بهو الطعام فجلسنا إلى مائدة صغيرة وتناولنا فطورا من اللبن والفطائر والبيض والفاكهة المسكرة ، وهو يمتاز بالجودة والكفاية

فالتهمته تاركا قدحا صغيرا من الخمر لم أمسه . قال لى فلوكة :

ـــ ستقدم الخمر مع كل وجبة وهى ضرورية .

فقلت بإصرار :

ـــ لا حاجة بى إليها .

فقال بهدوئه الملازم :

ـــ عرفت كثيرين من المسلمين يدمنونها .

فابتسمت و لم أعلق فقال متسائلا :

ـــ أتصدق حقا أن إلـٰهك يهمه أن تشرب خمرا أو لا تشربها ؟

ولما رأى تغير وجهى قال برقة :

ـــ معذرة !

وغادرنا الفندق معا للقيام بجولتنا السياحية الأولى . ألقيت نظرة شاملة ثم ارتد إلىّ طرفى فيما يشبه الخوف . هالنى الخلاء . الميدان وما يتفرع عنه من شوارع ، كلها خالية ، لا أثر فيها لإنسان . مدينة خالية ، مهجورة ، ميتة . إنها بالغة فى نظافتها وأناقتها وحسن هندامها ، فى عمائرها الضخمة ، وأشجارها الباسقة ، ولكن لا أثر للحياة بها . نظرت إليه منزعجا وسألته :

ـــ أين الناس ؟

فأجاب بهدوئه المثير :

— إنهم فى أعمالهم ، نساء ورجالا ..

فسألته بدهشة :

— ألا توجد امرأة غير عاملة ؟.. ألا يوجد عاطل ؟

— الجميع يعملون ، ولا يوجد عاطل ، لا توجد امرأة غير عاملة ، أما العجائز والأطفال فسوف تراهم فى حدائقهم ..

فقلت غير مصدق :

— الحلبة تموج بالنشاط ولكن شوارعها تكتظ دائما بالناس ..

فتفكر مليا وقال :

— نظامنا لا شبيه له بين النظم ، كل فرد يعد لعمل ثم يعمل ، وكل فرد ينال أجره المناسب ، الدار الوحيدة التى لا تعرف الأغنياء والفقراء ، هنا العدل الذى لم تستطع دار أخرى أن تحقق جزءا منه ..

وأشار إلى العمائر ونحن ننتقل من شارع خال إلى آخر :

— انظر ، كلها عمائر عظيمة ومتشابهة ، لا توجد سرايات ولا دور منفردة ، ولا عمائر عظيمة وأخرى متوسطة ، الفروق فى الأجور يسيرة ، الجميع متساوون إلا من يميزه عمله ، وأقل أجر يكفى لإشباع ما يحتاجه الإنسان المحترم من مأوى وغذاء وكساء وتعليم وثقافة وتسلية أيضا ..

عز علىّ التصديق ، وقلت ما هو إلا كلام يحفظه عن ظهر قلب ،

غير أن منظر الشوارع والعمائر راعنى ، إنها لا تقل فى هندستها عن الحلبة نفسها . ومضى بى فلوكة إلى حديقة مترامية ، يبلغها القاصد فوق جسر كبير مقام على نهر عريض . لم أشهد حديقة فى اتساعها وتنوع أشجارها وأزهارها . قال فلوكة :

— إنها حديقة من طعن بهم السن فيما وراء مرحلة النشاط والعمل .

رأيت الطاعنين فى السن من الجنسين ، يجدون فى الحديقة مرتادا للنزهة ، وملاعب رياضية خفيفة ، ومجالس للسمر والغناء .

— فى كل مدينة حديقة مماثلة ..

قال ذلك فى ارتياح ومباهاة فقلت لنفسى إنه نظام حسن ورعاية إنسانية لم أجد لها مثيلا فى الدور السابقة . ولفت نظرى كثرة المعمرين ممن جاوزوا الثمانين على أقل تقدير ، ولم أخف هذه الملاحظة عن فلوكة فقال من فوره :

— يمتاز الغذاء عندنا بوفرة عناصره الغذائية الأصلية مع تجنب الترف ، وممارسة الألعاب الرياضية فى أوقات معينة خلال ساعات العمل ..

ومن طرائف ما شاهدت فى الحديقة عروسين يقضيان شهر العسل ، أرمل وأرملة فى الحلقة الثامنة ، وكانا يجلسان على شاطئ بحيرة صناعية مدليين ساقيهما فى مائها المكتسى بلون أخضر بما ينعكس على سطحه من

أوراق الشجر التى تحنو فوقه . واستأنست بالبشر فمكثت فى الحديقة مدة طويلة حتى قال لى فلوكة :

ــ آن لنا أن نزور حديقة الأطفال ..

وكان يفصل بينها وبين حديقة العجائز ميدان متسع يكفى لأن تنشأ فيه مدينة صغيرة وترامت إلينا أصوات الصغار ونحن نقترب منها ، وكانت مترامية الأطراف كأنها دار مستقلة ، مكتظة بسكانها ما بين الطفولة والصبا ، وبها ملاعب لا حصر لها ، وأركان للدراسة والتربية ، ومربون ومربيات ، فسألت صاحبى :

ــ أهى للهو أم للتربية ؟

فأجاب :

ــ للاثنين معا ، وهنا نكتشف المواهب المختلفة ، ويتوجه كل بحسب استعداده ، وكما يرسم له ، وينوب المربون والمربيات عن الآباء والأمهات المنهمكين فى أعمالهم ..

فقلت ببراءة :

ــ ولكن لا شىء يعوض عن حنان الوالدين ..

فقال فلوكة بهدوء :

ــ حكم وأمثال لم يعد لها معنى فى دار الأمان..

لم يتسع النهار لزيارات جديدة فتناولنا الغداء فى الفندق وكان مكوننا

من شواء وقرنبيط وخبز وتفاح ، ومضى بى إلى الميدان الكبير قبيل الغروب ، وقفنا تحت شجرة حور وهو يقول :

ـــ آن لك أن ترى أهل الأمان ..

كان ثمة أربعة شوارع كبيرة تصب فى الميدان ، ومع الغروب تجلت بشائر البشر كأنها ساعة البعث ، وسرعان ما راح كل شارع يقذف بجموع لا يحيط بها الحصر من النساء والرجال ، لكل طائفة زى بسيط واحد كأنها فرقة جيش ، ورغم أمواجهم المتتابعة الهادرة تقدموا فى نظام ، لا يند عنهم أكثر من همس ، بوجوه جادة ومرهقة ، وخطى مسرعة ، كل إلى هدفه يسير ، للقادمين جانب وللذاهبين جانب ، لا اضطراب ولا مرح أيضا ، صورة مجسدة للمساواة والنظام والجدية أثارت إعجابى بقدر ما بعثت فى القلق والحيرة . وبلغ الزحام ذروته ثم مضى يخف وئيدا ولكن دون توقف حتى استعاد الخلاء مملكته الشاملة مع هبوط الظلام .

سألت فلوكة :

ـــ إلى أين ؟

ـــ المساكن !

ـــ ثم يرجعون كرة أخرى للسهر ؟

ـــ بل يبقون حتى الصباح ، أما الملاهى فتبعث فيها الحياة ليلة العطلة

الأسبوعية ..

فسألت بقلق :

ــ أيعنى هذا أن ليالينا ستقضى فى الفندق ؟

فقال دون مبالاة :

ــ فى فندق الغرباء ملهى تجد فيه ما تشاء من شراب ورقص وغناء ..

وقد سهرنا به ليلتنا ، فشهدت رقصا غريبا وسمعت غناء جديدا ، وبعض الألعاب السحرية ، ولكنها لم تكن مختلفة اختلافا جذريا عما شهدت وسمعت فى الحلبة ..

وفى اليوم التالى زرنا مصانع ومتاجر ومراكز للتعليم والطب . الحق أنها لم تكن تقل عن أمثالها فى الحلبة عظمة ونظاما وانضباطا ، واستحقت دائما إعجابى وتقديرى وهزت عقيدتى الراسخة فى تفوق دار الإسلام فى الحضارة والإنتاج ، غير أنى لم أرتح لتجهم الوجوه وصلابتها وبرودها المخيم ، هذه السجايا التى جعلت من مرافقى فلوكة شخصا لا غنى عنه ولا مسرة فيه .

وزرنا قلعة تاريخية جليلة الشأن حليت جدرانها بالنقوش والصور .

قال فلوكة :

ــ فى هذه القلعة دارت آخر معركة انتهت بهزيمة الملك المستبد

وانتصار الشعب ..

ومضى بى إلى بناء ضخم كالمعبد وهو يقول :

ــ إليك محكمة التاريخ ، هنا حوكم أعداء الشعب وقضى عليهم بالموت ..

فسألته عمن يعنى بأعداء الشعب . فقال :

ــ ملاك الأرض وأصحاب المصانع والحكام المستبدون !، لقد انتصرت الدولة بعد حرب أهلية طويلة ومريرة .

وتذكرت ما أخبرنى به أستاذى الشيخ مغاغة الجبيلى من أنه لم يستطع أن يواصل رحلته بسبب نشوب حرب أهلية فى دار الأمان . وتذكرت أيضا تاريخ الحلبة الدامى فى سبيل الحرية.وهل كان تاريخ الإسلام فى دارنا دون ذلك دموية وآلاما ؟. فماذا يريد الإنسان ؟. وهل هو حلم واحد أو أحلام بعدد الدور والأوطان ؟. وهل حقا وجد الكمال بدار الجبل ؟!.

وسألنى فلوكة :

ــ هل تمضى الليلة فى الملهى كأمس ؟

فأعلنت عن فتورى بالصمت فقال مشجعا :

ــ غدا تحتفل الدار بعيد النصر ، وهو يوم مشهود !

وتناولنا العشاء ثم جلسنا فى بهو المدخل بالفندق نتلقى نسائم الصيف

اللطيفة . وقلت لفلوكة :

ـــ إنى رحالة كما ترى ، وقد جرت العادة فى بلادى أن يسجل الرحالة أنباء رحلته ، وعلى ذلك تلزمنى معلومات كثيرة لا تكفى المشاهد الإلمام بها :

فأصغى إلى بهدوء دون أن ينبس فقلت :

ـــ يهمنى أن أجتمع بحكيم من حكماء داركم فهل تستطيع أن تحقق لى رغبتى ؟

فأجاب :

ـــ حكماء دار الأمان مستغرقون بواجباتهم ولكننى أستطيع أن أمدك بما تشاء من معلومات !

فهضمت خيبتى بسرعة مصمما على خوض التجربة . قلت :

ـــ أريد أن أعرف نظامكم السياسى ، كيف تحكمون ؟

فأجاب دون تردد :

ـــ لنا رئيس منتخب ، تنتخبه الصفوة التى قامت بالثورة ، وهى تمثل صفوة البلدان جميعا من علماء وحكماء ورجال الصناعة والزراعة والحرب والأمن ، ويتولى منصبه بعد ذلك مدى الحياة ، ولكنهم يعزلونه إذا انحرف !

ذكرنى ذلك بنظام الخلافة فى دار الإسلام ولكنه ذكرنى أيضا بمآسى

تاريخنا الدامى فسألته :

ــ ما هى صلاحياته ؟

ــ إنه المهيمن على الجيش والأمن والزراعة والصناعة والعلم والفن ، إذ أن الدولة عندنا هى صاحبة كل شىء ، والرعايا موظفون كل يعمل فى حقله لا فرق فى ذلك بين الكناس والرئيس ..

ــ ألا يعاونه أحد ؟

ــ مستشاروه ، والصفوة التى انتخبته ، ولكنه صاحب الرأى الأخير ، ولذلك فنحن فى مأمن من الفوضى والتردد ..

فترددت قليلا ثم قلت :

ــ ولكنه أقوى من أن يحاسب إذا انحرف ..؟

فخرج من بروده لأول مرة وقال بحدة :

ــ القانون هنا مقدس !

ثم مواصلا قبل أن أنبس :

ــ انظر إلى الطبيعة ، أساسها القانون والنظام لا الحرية !

ــ ولكن الإنسان من دون الكائنات يتطلع دائما إلى الحرية ..

ــ إنه صوت الشهوة والوهم ، لقد وجدنا أن الإنسان لا يطمئن قلبه إلا بالعدل فجعلنا من العدل أساس النظام ، ووضعنا الحرية تحت المراقبة ..

— أهذا ما يأمر به دينكم ؟

— نحن نعبد الأرض باعتبارها خالق الإنسان ومدخر احتياجاته .

— الأرض ؟!

— وهى لم تفعل لنا شيئا ولكنها خلقت لنا العقل وفيه الغنى عن أى شيء آخر .

ثم واصل بكبرياء :

— دارنا هى الدار الوحيدة التى لن تصادفك فيها أوهام أو خرافات !

استغفرت الله فى سرى طويلا . قد يجد الإنسان لوثنية دار المشرق عذرا ، ومثلها دار الحيرة ، ولكن دار الأمان بحضارتها الباهرة كيف تعبد الأرض ؟.. وكيف تبوىء عرشها رجلا منها فتنزله منزلة الملك الإلٰه ؟. إنها دار عجيبة . أثارت إعجابى لأقصى حد ، كما أثارت اشمئزازى لأقصى حد . ولكن ساءنى أكثر ما آل إليه حال الإسلام فى بلادى ، فالخليفة لا يقل استبدادا عن حاكم الأمان ، وهو يمارس انحرافاته علانية ، والدين نفسه تهرأ بالخرافات والأباطيل ، أما الأمة فقد افترسها الجهل والفقر والمرض ، فسبحان الذى لا يحمد على مكروه سواه .
ونمت ليلتها مرهقا ورأيت أحلاما مزعجة . وأشرق يوم العيد . ولما كان يوم عطلة عامة فقد تبدت العاصمة حية دافئة طيلة النهار . وقادنى فلوكة إلى ميدان القصر . رأيت القصر قلعة منيفة ، وتحفة معمارية لا نظير

لها ، يمتد أمامه ميدان هائل يتسع لألوف الألوف من البشر . اتخذنا موقعا وسطا وأخذ الناس يتوافدون ويقفون فى نظام صفوفا صفوفا فوق محيط الدائرة. تفرس فى الوجوه بحب استطلاع شديد. يا لهم من صور مكررة فى الملابس واللون والوزن . بشرة لم تلفحها شمس محرقة ، وقامات قوية ونحيلة معا ، ووجوه أشرقت بالابتسام تحية للعيد رغم تجهمها الدائم فيما عدا ذلك من أيام . جمال الوجوه فى الحلبة أرفع درجة بلا شك ولكن المساواة هنا تدعو للعجب ، ولذلك تقرأ فى الأعين طمأنينة راسخة وشيئا غامضا ينذر بالخمول .

ونفخ فى بوق إيذانا ببدء الاحتفال .

ومن أقصى نقطة فى محيط الدائرة المواجهة للقصر تقدم موكب حاملات الورود ، من فتيات متألقات بالشباب ، يسرن فى أربعة صفوف نحو القصر ، ثم وقفن فى طابورين متقابلين أمام مدخله الكبير . واندفعت الجموع تردد نشيدا واحدا ، فى قوة مؤثرة وجمال أيضا . تصاعد الصوت فى انسجام جامعا الحشود فى لحظة وجدانية واحدة ، مستوحاة من ذكريات حميمة مشتركة . وانتهى بتصفيق حاد استمر دقيقتين . ومسنى فلوكة بكوعه وهمس فى أذنى :

ـــ الرئيس قادم ..

نظرت نحو القصر فرأيت جماعة تتقدم من أعماق باهتة ، وكلما

تقدمت وضحت معالمها . الرئيس يتقدم تتبعه جماعة من الصفوة الحاكمة . وراح يمشى بحذاء محيط الدائرة ليتبادل التحيات مع الجموع عن كثب . ولما مر أمامى لم يكن يفصله عن موقفى أكثر من أشبار . رأيته متوسط الطول مفرطا فى البدانة غليظ القسمات واضحها . ولم تكن حاشيته دونه فى البدانة فلفت ذلك انتباهى بشدة ، وأيقنت أن الرئيس ورجاله يحظون بنظام غذائى خاص يشذ عما تخضع له جموع الشعب . وتخيلت ما يمكن أن يدور بينى وبين فلوكة من حوار عن ذلك . سيقول لى إن نظام الأمان لا يخلو من امتيازات يخصون بها الأفراد تبعا لتفوقهم فى العلم والعمل ، وأنه من الطبيعى أن يكون على رأس هؤلاء الرئيس المنتخب ومعاونوه . وأن هذه الامتيازات تمنح فى حدود ضيقة لا تسمح بوجود فوارق طبقية ولأسباب معقولة لا صلة لها بامتيازات الأسر والقبائل والطبقات فى المجتمعات الأخرى التى يسودها الظلم والفساد . والحق أنى لم أجد فى ذلك ما يخرق القانون العادل السائد فى دار الأمان ، ولم أجد به وجه شبه بما يجرى فى الدور الأخرى وعلى رأسها دار الإسلام نفسها من تفاوت فاحش ظالم فى معاملة الناس . وخطر لى أنى أرى الأمور بوضوح أكثر من ذى قبل . أجل ، إن لدار الحلبة هدفا وقد حققته بدقة ، وإن كذلك لدار الأمان هدفا وقد حققته بدقة ، أما دار الإسلام فهى تعلن هدفا وتحقق آخر باستهتار

وبلا حياء وبلا محاسب ، فهل يوجد الكمال حقا فى دار الجبل ؟!

رجع الرئيس إلى منصة أمام القصر فصعد إليها . ومضى يخطب شعبه ، عارضا عليه تاريخ ثورته ، وموقعة نصره ، وما أنجز لـه فى مجالات حياته المختلفة . ركزت على متابعة العواطف المتبادلة بين الرجل والناس ، فلم أشك فى حماسهم ، وتلاقيهم فى آمال واحدة، ورؤية متماثلة . ليسوا بالأمة المقهورة المغلوبة على أمرها ، ولا الفاقدة الوعى والتربية ، لعل ما ينقصها شىء هام ، لعل سعادتها تشوبها شائبة ، رأيتها أمة متماسكة وذات رسالة لا تخلو من إيمان من نوع ما .

عندما انتهى الرئيس من خطابه اخترقت الميدان ثلة من الفرسان شاهرة رماحها ، وقد غرست فى أسنة الرماح رءوس آدمية منفصلة عن أجسادها . غاص قلبى من فظاعة المنظر ، ونظرت نحو فلوكة ، فقال باقتضاب .

ـــ خونة متمردون !

لم يتسع الوقت للحوار . وعاد الشعب يردد النشيد ، وانتهى الاحتفال بهتاف شامل .

وعدنا إلى الفندق لتناول الغداء . وفى أثناء ذلك قال فلوكة :

ـــ أزعجك منظر الرءوس المقطوعة ؟.. ضرورة لا مفر منها ، نظامنا يطالبنا بألا يتدخل إنسان فيما لا يعنيه وأن يركز كل فرد على

شئونه ، فالمهندس لا يجوز أن يثرثر فى الطب ، والعامل لا يجوز أن يخوض فى شئون الفلاح ، والجميع لا شأن لهم بالسياسة الداخلية أو الخارجية ، ومن تمرد على ذلك فجزاؤه ما رأيت !

أدركت أن الحرية الفردية عقوبتها الإعدام فى هذه الدار ، واعترتنى لذلك كآبة شديدة ، وحنقت على فلوكة لإيمانه المتعصب بما يقول .

وسهرنا ليلا فى سيرك كبير اكتظ بالناس ، وشهدنا من أفانين الألعاب والغناء والرقص ما يسلى ويسر ، وتناولنا عشاء من الشواء والفواكه ، وشرب فلوكة ، ودعانى للشرب ، ولما لم أستجب اضطر إلى الاعتدال وهو كظيم . وغادرنا السيرك عند منتصف الليل ، وسرنا على مهل تحت ضوء القمر فى شوارع معمورة بالمترنحين . وطاب لى الحديث فقلت :

ـــ ما أجمل لهوكم !

فقال باسما لأول مرة إما لمناسبة العيد أو الخمر .

ـــ وما أجمل جدنا !

ورآنى أبتسم فلم يرتح لابتسامتى وقال :

ـــ أترى الحياة فى وطنك الأول أو وطنك الثانى خيرا من حياة الأمان ؟

فقلت بمرارة :

ـــ دع وطنى الأول فأهله خانوا دينهم ..

فقال بخشونة :

ـــ إذا لم يتضمن النظام الوسيلة لضمان تطبيقه فلا بقاء له .

ـــ إننا لم نفقد الأمل بعد .

ـــ إذن لم كانت الرحلة إلى دار الجبل ؟

فقلت بفتور :

ـــ العلم نور ..

فقال ساخرا :

ـــ ما هى إلا رحلة إلى لا شىء ..

وتتابعت الأيام مضجرة . وأخذ الناس فى الفندق يتحدثون عن العلاقة بين الحلبة والأمان بنبرة إشفاق وتشاؤم . وسألت فلوكة عما يكمن وراء ذلك فقال :

ـــ فى حربهم مع الحيرة تظاهروا بالاعتراف بحقنا فى عيون المياه ، ولما انتصروا سحبوا اعترافهم بكل خسة ودناءة ، واليوم يقال إنهم يجندون جيشا من البلدين اللتين استولوا عليهما ، المشرق والحيرة ، وهذا يعنى الحرب ..

واستحوذ علىّ القلق فسألته :

ـــ وهل تقوم الحرب حقا ؟

فأجاب ببرود :

ـــ نحن على أتم استعداد ..

فحام فكرى حول سامية والأبناء ، وتذكرت مأساة عروسة وأبنائها . وانتظرت على لهف انتهاء الأيام العشرة . ومر يوم ويوم دون حدث فاطمأن قلبى وأخذت أستعد للرحيل . وفى تلك الآونة خطر لى أن أسأل فلوكة عن الرحالة البوذى وزوجته عروسة اللذين زارا الأمان منذ عام فأكد لى أنه يمكن أن يمدنى بمعلومات عنهما عندما نذهب إلى المركز السياحى فى آخر أيام الإقامة . وأنجز الرجل وعده ، وراجع الدفاتر بنفسه ، وقال لى :

ـــ مكث الزوجان فى دار الأمان عشرة أيام ثم سافرا فى القافلة الذاهبة إلى دار الغروب ، غير أن الزوج مات فى الطريق ودفن بالصحراء أما الزوجة فواصلت رحلتها إلى دار الغروب ..

هزنى الخبر ، وتساءلت عن مكان عروسة وحالها ، وهل أجدها فى دار الغروب أو تكون رحلت إلى دار الجبل أو رجعت إلى المشرق ؟!

وعند الفجر كنت ومتاعى فى محط القافلة . صافحت فلوكة وقلت له :

— أشكرلك مرافقتك لى الطيبة وما أسديته إلى من فوائد .

فشد على يدى صامتا . ثم همس فى أذنى :

— قامت الحرب بين الحلبة والأمان ..

اضطربت لدرجة منعتنى من الاستمرار فى الكلام . حتى البادىء بالحرب لم أسأل عنه .

وهيمنت على ذكريات سامية والأبناء ، وحتى الوليد المنتظر ..

دار الغروب

انغمست القافلة فى ظلْمات الفجر وأنا أنظر إلى لا شىء بقلب مشحون بالقلق . لم يكتب لى أن أرحل مرة بقلب مطمئن ونفس صافية ولكن تغشانى دائما المخاوف . خيالى المحموم يحوم حول الحلبة داعيا بالسلامة لسامية ومصطفى وحامد وهشام ، متسائلا فى حيرة عن نتيجة ذلك الصراع الدامى بين أقوى دارين . ورفعت بصرى إلى حديقة السماء المزهرة وغمغمت « كن معنا يا إلٰه السماوات والأرض ». وأشرقت الأرض بنور ربها فرأيت صحراء مترامية مستوية وجوا صيفيا حنونا ، كما رأيت الغزلان تثب هنا وهناك حتى أطلقت عليها صحراء الغزلان . وامتد السفر شهرا فعانينا عناء غير ذى عنف يبشر بالحسنى . وفى هزيع من الليل بشرنا صوت بأننا بلغنا حدود دار الغروب . وكان القمر نصفا ، والجو مفضضا ولكننى لم أر سورا ، ولا مندوب الجمرك . وقال صاحب القافلة ضاحكا :

ــ هذه دار بلا حراس فادخلوها بسلام آمنين ..

فسألته :

— وكيف أعرف السبيل إلى فندق الغرباء ؟

فقال وهو يواصل الضحك :

— سينبئك نور النهار بما تسأل عنه ..

وانتظرت مشوقا حتى أشرقت الشمس . لعلها أجمل شمس عرفتها فى حياتى ، فهى نور بلا حرارة أو أذى ، يزفها نسيم عليل ورائحة طيبة . وترامت أمامى غابة غير محدودة . ولكن لم يقع بصرى على بناء ، كوخ أو بيت أو قصر ، كما لم أشاهد أحدا من الناس . لغز جديد علىّ أن أكتشفه ولكن ماذا أصنع بمتاعى ؟. ورجعت إلى صاحب القافلة فقال :

— ضعه فى مكانه ولا تخف ، اذهب آمنا وعد آمنا ..

واخترت موضعا قريبا من عين الماء فجعلتها علامة ، ووضعت الحقائب ، وأودعت الدنانير حزاما تمنطقت به تحت الجلباب . ورحت أتجول مستكشفا . أسير فوق أرض معشوشبة ، نثرت على أديمها أشجار النخيل والفاكهة ، تتخللها عيون مياه وبحيرات . وخيل إلى فى أول الأمر أنها خالية من البشر ، حتى رأيت أول آدمى متربعا تحت نخلة ، كهلا أبيض الشعر مرسل اللحية ، صامتا وناعسا أو غائبا ، متوحدا بلا قرين أو قرينة ، فدنوت منه كأنى عثرت على كنز وقلت له :

— السلام عليك يا أخى ..

ولكن لم يبد عليه أنه سمعنى فكررت السلام وقلت :

— إنى رحالة وفى حاجة إلى كلمة تضىء لى الطريق ..

فلم تند عنه نأمة وظل غائبا فى ملكوته فسألته :

— ألا تريد أن تتحدث معى ؟

فلم يظهر عليه أى رد فعل وكأنما لا وجود لى فآيسنى منه ، فتحولت عنه مرغما وواصلت السير . وكلما أوغلت صادفنى آخر على مثل حاله ، رجل أو امرأة ، فأبذل المحاولة من جديد ولا ألقى إلا الرفض أو التجاهل ، حتى خيل إلىّ أنها غابة من الصم البكم العمى . ألقيت نظرة شاملة مفتونة على الجمال من حولى وغمغمت « إنها جنة بلا ناس » . تناولت من الفواكه الساقطة على الأرض حبات حتى شبعت ، ثم رجعت إلى متاعى فرأيت التجار وهم يملئون أجولتهم بالفاكهة بلا حساب ولا رقيب . ولما رآنى صاحب القافلة ضحك وقال :

— هل استطعت أن تستنطق أحدا منهم ؟

فحركت رأسى بالنفى فقال :

— إنها جنة الغائبين ، لكن خيراتها مبذولة بلا حساب ..

فسألته باهتمام :

— ماذا تعرف عنهم ؟

فقال دون مبالاة :

ـــ يوجد فى الغابة شيخ يقصده القاصدون فلعله يمدك بما تسأل عنه ..

فأحيا أمل الرحالة من جديد فقلت له وأنا ثمل بنشوة فوز :

ـــ ما أجمل جو الصيف ها هنا .

فقال الرجل :

ـــ هكذا جميع الفصول !

ونهضت مع الشمس نشيطا متفائلا فسمعت أحد التجار يقول :

ـــ سنظل نذهب ونجيء ما بين الأمان والغروب حتى تنتهى الحرب وتفتح الطرق للقوافل من جديد ..

وانطلقت إلى عمق الغابة أتقدم ساعات بلا توقف حتى ترامى إلىّ صوت غناء جماعى . اتجهت نحو الصوت حتى تراءى لعينى منظر جماعة من نساء ورجال تجلس فوق الأرض على هيئة هلال ، بين يدى شيخ هرم يتخذ مجلسه تحت شجرة وارفة ، وكأنه يعلمهم الغناء وهم يرددون الصوت فى حنان بالغ . جعلت أقترب حتى قبعت وراءهم ، ونظرت إلى الرجل فرأيت شيخا عاريا إلا مما يستر العورة كأن هالة من نور تحدق بوجهه الوضىء وعينيه الجذابتين . وختم الغناء ، أو الدرس ، فقام الرجال والنساء وتفرقوا فى هدوء . لم تكن عروسة بين النساء ، ولم أعثر عليها أمس ولكن رائحتها كانت تخالط فى الجو روائح الفاكهة

والأعشاب الخضراء . لم يبق فى المكان إلا الشيخ وأنا . وقفت فى خشوع بين يديه فنظر إلىّ بعينيه الصافيتين فشعرت بأننى موجود . تلاشت الغربة التى خنقتنى فى الغابة أمس فانتميت إلى دار الغروب و لم تضع الرحلة سدى . رفعت راحتى إلى جبينى تحية وقلت :

— إنك ضالتى يا مولاى .

فسألنى وهو يتفرس فى وجهى :

— قادم جديد ؟

— أجل ..

— ماذا تريد ؟

— رحالة يمضى من دار إلى دار وراء المعرفة .

فأغمض عينيه دقيقة ثم فتحهما وقال :

— غادرت دارك للمعرفة ، ولكنك حدت عن الهدف مرات ، وبددت وقتا ثمينا فى الظلام ، وقلبك موزع بين امرأة خلفتها وراءك وامرأة تجد فى البحث عنها !

ذهلت حقا ورمقته بخوف ثم قلت :

— كيف تأتّى لك أن تقرأ الغيب ؟

فقال ببساطة :

— هنا يفعلون ذلك وأكثر .

— أأنت حاكم هذه الدار ؟

ـــ لا حاكم لهذه الدار ، وأنا مدرب الحائرين ..

فقلت بحرارة :

ـــ زدنى فهما !

ـــ كل شيء مرهون بوقته ..

فأومأت إلى ما حولى وقلت :

ـــ لماذا لا يرددون تحية أو يسمعون كلمة ؟

فقال بهدوء :

ـــ حياتهم هنا موافقة للحق ومفارقة للخلق .

ـــ يبدون كالغائبين ؟

ـــ باب الصبر على مرارة البلوى لإدراك حلاوة النجوى .

فتفكرت فيما سمعت ثم سألته :

ـــ وما غايتهم من وراء ذلك ؟

ـــ جميعهم مهاجرون ، من شتى الأنحاء يجيئون إعراضا عن الهواء الفاسد ، وليغدوا أنفسهم للرحلة إلى دار الجبل ..

فطربت للاسم وقلت بحبور :

ـــ إذن سأجد رفاقا فى رحلتى الأخيرة ..

فلاحت ابتسامة فى عينيه وقال :

ـــ عليك أن تعد نفسك مثلهم .

ـــ كم يتطلب ذلك من وقت ؟

ـــ كل بحسب قدرته ، وقد تخور الهمة فينصح بالبقاء فى الغروب ..

فانقبض صدرى وسألته :

ـــ وإذا أصر على الذهاب ؟

ـــ يخشى أن يعامل هناك كالحيوان الأعجم !

فدهمتنى حيرة شديدة وسألته :

ـــ وكيف تعدهم للرحلة ؟

فقال بوضوح :

ـــ كل شيء يتوقف عليهم ، إنى أدربهم بالغناء لتمهيد الطريق ، ولكن عليهم أن يستخرجوا من ذواتهم القوى الكامنة فيها .

فقلت بحيرة :

ـــ لم أسمع مثل هذا الكلام من قبل .

ـــ هذا شأن كل جديد .

فسألته بضراعة :

ـــ ما معنى أن أستخرج من ذاتى القوى الكامنة فيها ؟

ـــ معناه أن فى كل إنسان كنوزا مطمورة عليه أن يكتشفها . خاصة إذا أراد أن يزور دار الجبل .

ـــ وما العلاقة بين هذا ودار الجبل ؟

فصمت مليا ثم قال :

ـــ إنهم هناك يعتمدون فى حياتهم على هذه الكنوز فلا يستعملون الحواس ولا الأطراف !

فقلت برجاء :

ـــ هلا وهبتنى فكرة عن هذه الكنوز ؟!

ـــ لا تتعجل .

ـــ ومتى أعرف أننى وفقت ؟

فقال بهدوء :

ـــ عندما يتأتى لك أن تطير بلا أجنحة !

فأمعنت النظر فيه بذهول ، ثم قلت متأثرا بجده وصدقه :

ـــ لعلك تحدثنى على سبيل المجاز .

ـــ بل هى الحقيقة دون زيادة .. الدار هناك تقوم على هذه القوى ، وبها شارفت الكمال ..

فقلت بتصميم :

ـــ ستجدنى من المخلصين ..

ـــ سيكون جزاؤك المكوث فى دار الجبل .

فقلت بعجلة :

ـــ ما هى إلا زيارة أرجع بعدها إلى دارى .

فقال بيقين :

ـــ سوف تنسى بها الدنيا وما فيها .

ـــ لكن وطنى فى حاجة إلى ..

فسألنى متعجبا :

ـــ وكيف تركته ؟

ـــ قمت بالرحلة بأمل أن أرجع إليه بخبرة يكون فيها خلاصه .

فقال الشيخ بامتعاض :

ـــ إنك من الهاربين ، تعللت بالرحلة فرارا من الواجب ، لم يهاجر أحد إلى هنا إلا بعد أن أدى واجبه ، ومنهم من خسر زهرة عمره فى السجن فى سبيل الجهاد لا بسبب امرأة ..

فهتفت جزعا :

ـــ كنت فردا حيال طغيان شامل ..

ـــ هذا عذر الخائر !

فتوسلت إليه قائلا :

ـــ ليكن من أمر الماضى ما يكون فلا تثبط همتى ولا تبدد حياتى هباء ..

فلاذ بالصمت حتى اعتبرت الصمت رضى ، وتشجعت قائلا :

ـــ ستجدنى من أهل العزم والإخلاص ..

وقمت حانيا رأسى فى خشوع . وخطر لى خاطر فترددت جافلا من إعلانه ، وإذ به يقول :

ــ تريد أن تعرف ماذا فعل الدهر بعروسة !

فذهلت كما ذهلت حين انتزع ماضىّ من الظلمات . وساءلت نفسى ترى أهكذا يتفاهمون فى دار الجبل ؟. أما هو فقال :

ــ لقد سبقت إلى دار الجبل !

فسألته بدهشة :

ــ وفقت فى خوض التجربة ؟

فقال باسما :

ــ بفضل ما عانت فى حياتها من آلام ..

ولما هممت بالذهاب تساءل :

ــ ما فائدة الدنانير تكنزها حول وسطك ؟

رجعت إلى محط القافلة فأودعت الدنانير إحدى الحقائب . وقال لى صاحب القافلة :

ــ نحن ذاهبون فجر الغد .

فقلت دون مبالاة :

ــ إنى باق .

وفى أعقاب الفجر كنت أول من قصد مجلس مولاى . ولحق بى نفر من القادمين الجدد فجلسنا على هيئة هلال ، عرايا إلا مما يستر العورة ،

وقال الشيخ :

— أحبوا العمل ولا تكترثوا للثمرة والجزاء .

وصمت قليلا ثم واصل حديثه :

— أول درجة فى السلم هى القدرة على التركيز الكامل ..

وصفق بيديه ثم قال :

— بالتركيز الكامل يغوص الإنسان فى ذاته .

وراح يغنى ونحن نردد غناءه . وقد رفعنى الغناء إلى عالم آخر . وعند كل مقطع تدفق من وجدانى ينبوع قوة .

وعدت إلى مجلسى تحت نخلة وشرعت فى التجربة . صارعت التركيز وصارعنى . والتحمت فى معركة حامية مع صور حياتى الماضية . تغزونى بالحب والوفاء وأطاردها بمر الغناء وتمر الأيام مليئة بالعذاب والعزم والأمل . وعند بداية كل درس ، قبل الغناء والترديد ، يوصينا بحب العمل وإهمال الثمرة والجزاء ويقول :

— بذلك توثق المودة بينكم وبين روح الوجود .

كما يوصينا بالتركيز قائلا :

— إنه مفتح أبواب الكنوز الخفية .

ويقول بيقين :

— هناك (دار الجبل) بالعقل والقوى الخفية يكتشفون الحقائق

ويزرعون الأرض وينشئون المصانع ويحققون العدل والحرية والنقاء الشامل .

وأرجع إلى عزلتى وأنا أتخيل اليوم الذى أسلط فيه قواى الكامنة على كل معوج فى وطنى لأنشئه من جديد مقاما صالحا لقوم صالحين . وتمر الأيام وأنسى الزمن فلا أدرى كم مضى علىّ من أيام وشهور ، ويمتلئ وعائى بالثقة ، وتبرق فى ظلماته بوارق الإلهام . واستيقظت ذات يوم قبل الفجر مبكرا عن ميعادى المعتاد . وذهبت من فورى إلى الشيخ فوجدته جالسا تحت ضوء النجوم فاتخذت مجلسى وأنا أقول :

— ها أنذا يا مولاى .

فسألنى :

— ماذا جاء بك ؟

فقلت بثبات :

— نداء صدر منك إلى .

فقال راضيا :

— هذه خطوة أولى للنجاح وأول الغيث قطر .

وصمتنا فى انتظار قدوم الرفاق حتى اكتمل هلالنا . وبدا وجه الشيخ فى ضوء الشروق واجما . وشرع فى الغناء كالعادة فرددنا الغناء ولكننا لم نثمل بالسرور . وقبل أن ننصرف عنه قال :

— الشر قادم فتلقوه بالشجاعة الجديرة بكم ..

ولم يضف إلى ذلك كلمة متجاهلا أعيننا المتسائلة .. واستيقظنا غداة اليوم التالى على جلبة وصهيل خيل . ونظرنا فرأينا المشاعل منتشرة فوق الأرض كالنجوم ، رأينا جيشا من فرسان ورجالة يطوق دار الغروب دون سابق إنذار . وهرع الجميع إلى موقع الشيخ وجلسوا حوله صامتين هادئين . وراحوا يغنون حتى أشرقت الشمس وعند ذاك قدم قائد يتبعه حراس حتى وقف أمامنا . من النظرة الأولى اكتشفت أنهم من جيش دار الأمان ، وتساءلت فى قلق ترى هل انتصروا على الحلبة ؟. وقال القائد :

— بالنظر إلى الحرب الدائرة بيننا وبين الحلبة ، وبناء على ما بلغنا من أن الحلبة تفكر فى احتلال دار الغروب لتطوق دار الأمان ، فقد اقتضت دواعى الأمن أن نحتل أرضكم .

ساد الصمت ولم يعلق أحد من جانبنا بكلمة فقال القائد :

— إذا أردتم البقاء فعليكم أن تزرعوا الأرض وأن تنضموا إلى البشر العاملين وإلا فسوف نعد لكم قافلة تحملكم إلى دار الجبل .

ساد الصمت مرة أخرى حتى خرقه الشيخ موجها خطابه لنا :

— اختاروا لأنفسكم ما تحبون ..

فاستبقت الأصوات هاتفة :

ـــ دار الجبل .. دار الجبل ..

فقال الشيخ محذرا :

ـــ ستلقون عناء لنقص تدريبكم ..

فأصروا هاتفين :

ـــ دار الجبل .. دار الجبل ..

فقال القائد بحزم :

ـــ من يعثر عليه منكم ها هنا بعد قيام القافلة سيعتبر أسير حرب !

البداية

عند الفجر غادرت القافلة دار الغروب . لأول مرة يستأثر بها الرحالة والمهاجرون ولا يرى بها تاجر واحد . ولفنا قلق وحزن وإشفاق ، لما حل بدار الغروب ، ولانقطاعنا الإجبارى عن التدريب ، وتمنيت أن تسنح فى الطريق فرص لمعاودة التركيز والاجتهاد تخفيفا من العناء المنتظر . وكشف الشروق عن صحراء مستوية ، تكثر فى أرجائها عيون المياه . وسرنا شهرا حتى اعترض سبيلنا الجبل الأخضر ممتدا من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . وكان علينا أن نعبر الجبل صعودا وهبوطا ، وترامى أمامنا فج واسع يتدرج فى صعوده تدرجا هينا رفيقا فاتجهت إليه القافلة . وتساقط الرذاذ فى أوقات متقطعة فآنس من وحشتنا . وجعلنا نسير بالنهار ونعسكر فى الليل حتى بلغنا السطح بعد انقضاء ثلاثة أسابيع . كان سطحا عريضا غزير الأعشاب ، وعند حافته قال الشيخ وهو يشير بيده :

ـ هاكم دار الجبل .

كان يشير إلى جبل آخر يفصل بينه وبين الجبل الأخضر صحراء ، وعلى سطحه قامت الدار عالية مترامية هائلة القباب والمبانى تنطق بالعظمة والسمو . نظرت صوبها بذهول وافتتان . لم تعد حلما ولكنها حقيقة ، وحقيقة قريبة ، فليس بيننا وبينها إلا أن نهبط السفح ونقطع الصحراء القصيرة ثم نصعد الجبل الآخر فنجد أنفسنا أمام مدخلها ، ومدير الجمرك يقول لنا :

ـــ أهلا بكم فى دار الجبل ، دار الكمال ..

وقل صبرنا وتعجلنا الرحيل فهبطت القافلة سفح الجبل فى أسبوعين حتى بلغنا الصحراء . ودهمتنا دهشة إذ ترامت الصحراء أمامنا كأنها بلا نهاية و لم نكد نرى الجبل الآخر من شده إيغاله فى البعد . عجبت لخداع البصر ، وأيقنت من أنه ستمضى أيام وأسابيع قبل أن نصل إلى الجبل الآخر الذى تقوم على سطحه دار الجبل . وسرنا أسابيع وأسابيع ، وضاعف من طول المسافة اعتراض التلال والهضاب مما اضطرنا إلى الانعطاف إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة أخرى ، حتى خيل إلىّ أنه انقضى عمر قبل بلوغنا سفح الجبل الآخر . ووقفنا أسفله ننظر إلى أعلاه فوجدناه يعلو على السحب ويتحدى الأشواق . وإذا بصاحب القافلة يقول :

ـــ هنا ينتهى سير القافلة يا سادة !

فلم أصدق أذنى وقلت :

— بل تصعد بنا حتى دار الجبل .

فقال الرجل :

— الممر الجبلى ضيق كما سترون لا يتسع لناقة أو جمل .

وهرعنا إلى شيخنا فقال بهدوء :

— صدق الرجل .

— وكيف نواصل رحلتنا ؟

فقال بلا مبالاة :

— على الأقدام كما واصلها السابقون .

وقال صاحب القافلة :

— من يشق عليه السير فليرجع مع القافلة .

ولكن لم تهن عزيمة أحد وصممنا على المغامرة . وفكرت فى ذاتى وفيمن خلفت وفيما قد يصادفنى من أسباب تحول دون عودتى ، فكرت فى ذلك فخطر لى خاطر وهو أن أعد بدفتر رحلتى إلى صاحب القافلة ليسلمه إلى أمى أو إلى أمين دار الحكمة ، ففيه من المشاهد ما يستحق أن يعرف ، بل به لمحات عن دار الجبل نفسها تبدد ما يخيم عليها من ظلمات وتحرك الخيال لتصور ما لم يعرف منها بعد . ولا بأس بعد ذلك أن أفرد دفترا خاصا لدار الجبل إذا قيض لى زيارتها والرجوع منها

إلى الوطن . وقبل الرجل القيام بالمهمة ، فنفحته بمائة دينار ، وقرأنا الفاتحة . تخففت بعد ذلك من وساوسى ، وتأهبت للمغامرة الأخيرة بعزيمة لا تقهر .

* * *

بهذه الكلمات ختم مخطوط رحلة قنديل محمد العنابى الشهير بابن فطومة .

ولم يرد فى أى كتاب من كتب التارخ ذكر لصاحب الرحلة بعد ذلك .

هل واصل رحلته أو هلك فى الطريق ؟

هل دخل دار الجبل وأى حظ صادفه فيها ؟

وهل أقام بها لآخر عمره أو عاد إلى وطنه كما نوى ؟

وهل يعثر ذات يوم على مخطوط جديد لرحلته الأخيرة ؟

علم ذلك كله عند عالم الغيب والشهادة .

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب		تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة	
مصر القديمة		١٩٣٢		
همس الجنون	مجموعة	١٩٣٨	العاشرة	١٩٧٩
عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩	الحادية عشرة	١٩٨٥
رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣	العاشرة	١٩٨١
كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤	الحادية عشرة	١٩٨٥
القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥	الثالثة عشرة	١٩٨٧
خان الخليلي	رواية	١٩٤٦	العاشرة	١٩٧٩
زقاق المدق	رواية	١٩٤٧	الحادية عشرة	١٩٨٥
السراب	رواية	١٩٤٨	الثالثة عشرة	١٩٨٧
بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩	الخامسة عشرة	١٩٨٧
بين القصرين	رواية	١٩٥٦	الثالثة عشرة	١٩٨٦
قصر الشوق	رواية	١٩٥٧	الرابعه عشرة	١٩٨٧
السكرية	رواية	١٩٥٧	الثالثة عشرة	١٩٨٧
اللص والكلاب	رواية	١٩٦١	التاسعة	١٩٨٠
السمان والخريف	رواية	١٩٦٢	التاسعة	١٩٨٥
دنيا الله	مجموعة	١٩٦٢	السادسة	١٩٨٧
الطريق	رواية	١٩٦٤	الثامنة	١٩٨٤
بيت سيئ السمعة	مجموعة	١٩٦٥	السابعة	١٩٨٣
الشحاذ	رواية	١٩٦٥	الثامنة	١٩٨٥
ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦	السابعه	١٩٨٧
ميرامار	رواية	١٩٦٧	الخامسة	١٩٧٩
خمارة القط الأسود	مجموعة	١٩٦٩	السابعة	١٩٨٠
تحت المظلة	مجموعة	١٩٦٩	السادسة	١٩٨٤

اسم الكتاب		تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة	
حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة	١٩٧١	السابعة	١٩٨٧
شهر العسل	مجموعة	١٩٧١	السادسة	١٩٨٢
المرايا	رواية	١٩٧٢	الخامسة	١٩٨٠
الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣	الرابعة	١٩٨٠
الجريمة	مجموعة	١٩٧٣	الخامسة	١٩٨٤
الكرنك	رواية	١٩٧٤	السابعة	١٩٨٦
حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥	السادسة	١٩٨٦
قلب الليل	رواية	١٩٧٥	الثالثة	١٩٨١
حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥	الرابعة	١٩٨٣
ملحمة الحرافيش	رواية	١٩٧٧	الرابعة	١٩٨٥
الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة	١٩٧٩	الرابعة	١٩٨٧
الشيطان يعظ	مجموعة	١٩٧٩	الرابعة	١٩٨٧
عصر الحب	رواية	١٩٨٠	الثانية	١٩٨٧
أفراح القبة	رواية	١٩٨١	الثالثة	١٩٨٧
ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢	الثالثة	١٩٨٧
رأيت فيما يرى النائم	مجموعة	١٩٨٢	الثالثة	١٩٨٧
الباقى من الزمن ساعة	رواية	١٩٨٢	الثانية	١٩٨٥
أمام العرش (حوار بين الحكام)		١٩٨٣	الثانية	١٩٨٥
رحلة ابن فطومة	رواية	١٩٨٣		
التنظيم السرى		١٩٨٤		
العائش فى الحقيقة		١٩٨٥		
يوم مقتل الزعيم	رواية	١٩٨٥		
حديث الصباح والمساء	رواية	١٩٨٧		
صباح الورد				

تحت الطبع

قشتمر	رواية
الفجر الكاذب	مجموعة

رقم الإيداع ٢٦٤٣ / ٨٩

الترقيم الدولى ٥ ــ ٠٤٨٤ ــ ١١ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٣٠٠ قرش